الباب الرابع

المعجزة بين الإقرار والإنكار

إن الإيمان بالمعجزات
لا ينفك عن الإيمان
بالله .
شيله رماخر
ريتجه . ل

obeikandl.com

الفصل الأول

إمكان المعجزة

obeikandl.com

المعجزة ممكنه وليست بالمستحيلة

فالمعجزة فوق العقل لاضده لأن العقل محدود وعالم الغيب مطلق غير محدود وإلا ما استحق الإيمان به .

والمعجزة هي أيضا فوق الطبيعة لا ضدها[1]، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبعى فكما أن الإرادة الإنسانية توقف ناموس الثقل إذا رفع الإنسان يده كذلك إرادة الله تعالى توقف جميع النواميس الطبعية إذا شاءت.

«فالنواميس الطبعية إنما هي عبارة عن نظام سنه الخالق ينشأ بموجبه عن كل علة معلول واحد على الدوام، فإن نشأ عن علة واحدة معلولات متنوعة في أوقات مختلفة في دائرة الطبعيات كان ذلك من قبيل المخالفة. ولما كانت المعجزة ناشئة عن علة. . . خارجة عن دائرة الطبيعة لكنها تحدث في الطبيعة معلولات خاصة مع بقاء النواميس الطبعية على نظامها. كان ذلك غير مخالف لتلك النواميس»[2] .

والمعجزة ممكنة لأنها ليست بأعجب مما هو حادث مشاهد أمام الأبصار والبصائر، وليست هي بمحتاجة إلى قدرة أعظم من القدرة التي نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة«ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله تعالى ما يحكى من معجزات الأنبياء عليهم السلام بحال من الأحوال»[3] .

لأنا«إذا ما سلمنا بأن في مقدور بعض النواميس الطبعية أن تظفر بالبعض الآخر من غير أن تلغيه أو تلاشيه فلم لا نثق بالأولى أن نواميس فوق الطبعية التي لا ندرك بعد كنهها، قد استأسرت ببعض النواميس الطبعية التي لازلنا نجهل عنها الشيء الكثير»[4] .

---

(١) يقول القديس أوغسطين:«عندما نقول إن الله يفعل شيئا ضد الطبيعة فنحن نعني أنه يفعل ضد الطبيعة كما نعرفها فى شكلها الاعتيادي المألوف لنا .
انظر . David Patrick, :Chambers's Encyclopaedia Vol.ll.p.227

(٢) نخبة من علماء النصارى : علم اللاهوت النظامي ص ٤٨٤ .

(٣) الغزالى:تهافت الفلاسفة ص٢٣٧ . فالعلم يؤكد المعجزات،ولا تعارض بينهما كما يزعم بعض الباحثين قائلين إن عصر المعجزات انتهي من العالم العلمي .
(The age of miracles had gone from the scientific world)
John Lewis: The Religions of The World p.144 .
وانظر . Antony Flew : A Dictionary of Philosophy, p. 217

(٤) إبراهيم سعيد : لماذا أؤمن ص ١٣ ، ١٤ .

وإن لم يكن من المستحيل عقلا أن يتم في ثانية ما تعودنا أن يتم في عام، ولا من المستحيل عقلا أن يحدث في قيد الشعرة ما كنا نظن أنه لا يحدث في غير الآفاق الفساح فقد كان هذا مستحيلا في رأي عباد العادات ومنكري الخوارق فيما تعودوه، وبعضهم معدودون من الفلاسفة المفكرين وفي عصرنا هذا أصبح كل ذلك واقعا حقيقيا، والعقل الإنسانى لا يصاب بآفة أضر له من الجمود على صورة واحدة يمتنع عنده كل ما عداها، فإما أن تكون الأشياء عنده كما تعودها وكرر مشاهدتها وإما أن تحسب عنده في عداد المستحيلات، وأدنى من هذا العقل إلى صحة النظر عقل يتفتح لاحتمال وجود الأشياء على صور شتى لا يحصرها المحسوس والمألوف فلا استحالة في خوارق العادات. ومن قال باستحالتها لزمه الإثبات لأنه يدعي الاستحالة عقلا بغير دليل[1] .

ويؤكد ابن سينا على هذا الموقف العقلانى بقوله«وليس الخرق في تكذيبك ما لم يستبن لك. . . دون الخرق في تصديقك ما لم تقم بين يديك بينته . . . فالصواب أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ما لم يذدك عنه قائم البرهان»[2]

لأن عدم العلم لا يعنى العلم بالعدم. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك المعنى بقوله تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[3] وعاب على أقوام أنهم ﴿كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[4] .

ثم إن القدرة التي خلقت العالم لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه ومن السهل أن يقال عن ذلك أنه غير متصور عند العقل لكن الذى يقال عنه إنه غير متصور ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم[5] يعنى لو لم يكن هذا العالم موجودا وقيل لمن ينكر المعجزات ولا يتصور وجودها: سيوجد عالم كذا، كان جوابه أن هذا غير متصور، وكان نفى تصوره أشد من نفى تصور المعجزات.

---

(١) انظر العقاد: التفكير فريضة إسلامية ص ٨٢ : ٨٣ .

(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٩٠٢

(٣) الإسراء :٣٦ .

(٤) يونس :٣٩ .

(٥) والكلام لوليام استانلي جوون من كبار المنطقيين الإنجليز .

بل إذا نظرنا في خلق العقل الذى هو أكبر معجزة وأول رسول من الله إلى عباده، ثم إذا نظرنا في أن يبعث رسولا إلى عباده ويجعل على يديه علامة لرسالته كما يبعث الملك عامله إلى رعيته بمرسوم من عنده. إذا نظرنا فإن إرسال الرسل إلى الناس وجعلهم ممتازين ببعض المعجزات التى هى أوسمة رسالتهم، أسهل من خلق معجزة العقل في الإنسان وجعل نوعه ممتازا بها [1].

لأن الأول من هذين الأمرين في متناول القدرة البشرية أيضا. فيستطيع الملك أن يرسل رسولا إلى شعبه ويخصه بمرسوم منه لا يوجد في يد غيره، ولا يستطيع أن يمنح رسول العقل وكوننا نرى الأمر بالعكس فنظن ما هو أكثر وقوعا أسهل لكثرته. وما هو أقل وقوعا أصعب لقلته. لا يغير الحقيقة المعقولة عند قطع النظر عن القلة والكثرة فجميع الممكنات سهلة متساوية الأقدام في السهولة بالنسبة إلى قدرة الله، والممكنات لا تحد ولا تنتهى إلا في المحال الذى يقدره العقل المحض ويفصل بينه وبين الممكن بميزانه، وليس لغير هذا الميزان حق البت في حدود الإمكان والاستحالة، فلا نقل هذا ممكن وهذا محال بالنظر إلى تجربة الوقوعات وعلى رغم هذا نجد الذين ينكرون النبوات والمعجزات يعتمدون فى إنكارهم على تجربة الوقوعات الحاضرة لكونهم لا يقدرون الله وعظمته قدرته كما قال تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾[2] ولكونهم في عصر رواج التجربة، وكساد العقل المحض فيرون السموات والأرض مخلوقة فيعترفون بإمكانها غير مستبعدين، ولا يرون في عصرهم نبيا ولا معجزته التى ليست بأعظم من السموات والأرض، فيقولون إنها غير ممكنة ويقولون إنها غير مؤتلفة مع نظام العالم .

---

(١) ولهذا قال «شاتوبريان» :«الإنسان حيوان ميتافيزيقي» لامتيازه بالعقل ،فالانسان نفسه يكفينا مثالا للمعجزة ولا يجوز أن يقال انتهازا للفرصة من قولنا بأن العقل أكبر معجزة:أن رسول العقل يغني عن إرسال الرسل ..... لأن الناس لا يستغنون بعقولهم عن عباد الله الذين اصطفاهم لدعوة الخلق إلى صراطه المستقيم،كما أن كون الرعية من ذوي العقول لا يغنيهم من أن يرسل إليهم الملك عاملا من عنده ينزلون إلى قوله ويعتبرونه قول الملك.

انظر ـ مصطفى صبري : القول الفصل هامش ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) الأنعام : (٩١) .

ولا شبهة فى إمكان المعجزات، والذين ادعوا أنها محالات عقلية لم يميزوا ما هو غير واقع بالنظر إلى تجربتنا [1] عما هو محال في حين أن بينهما فرقا عظيما، فها هنا خمس مراتب: الإمكان، والوقوع، وضرورة الوقوع، وعدم الوقوع، واستحالة الوقوع. فتحكم التجربة في الوقوع واللاوقوع فقط، حتى إن حكمها في اللاوقوع لا يكون كليا بتمام معنى الكلمة[2]. أما الثلاثة الباقية فالحاكم فيها العقل، وقد يكون الممكن أمرا عظيماً تقصر التجربة عن الوصول إليه. فيظنه قصير العقل مستحيلا أو يكون الواقع كثير الأمثال جدا فيظنه ضروريا، مثلا يرى النار تحرق دائما ما من شأنه الاحتراق، فيحكم بأن إحراقها ضرورى لا يمكن انفكاكه عنها مع أن الضرورة أو الاستحالة تندر جداً [3].

وهناك كثير من الأحاديث النبوية تقرب لنا فهم مسألة الوحى ومعجزة الإنباء بالغيب للأنبياء وذلك حين ترشدنا إلى أن الرؤيا الصالحة من الوحى.

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها «أول ما بدئ به رسول الله - ﷺ - من الوحى: الرؤيا الصالحه - وفي رواية «الصادقة» - في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» [4].

ومن الأحاديث التى تؤيد ذلك الأحاديث التى ترشدنا إلى أن «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» [5] وقوله - ﷺ - «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة» [6].

وهذا الذى قالته السيدة عائشة وغيره هو أحد الأدلة على النبوة. والذى انتهى إليه عباقرة الفكر فذاك أمر قد جربه أكثر الخلق إن لم يكن كلهم، وجميع الناس

---

(١) على أن التجارب الماضية من مختلف الأمم فى أزمنة الأنبياء تشهد بوقوع المعجزات، فوجود الأنبياء المعروفين - عليهم السلام - وشهود الناس بمعجزاتهم ثابتان.

(٢) «ومن هنا لا يرى «استوارت مل» الوجوب والضرورة في أى مسألة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة في جميع أزمنة الماضي فليس بشيء إزاء عدد الحالات غير المتناهية التي يحتفظ بها المستقبل احتياطيا والقول بأنه لا سبب داعيا على أن لا تكون حالات المستقبل طبق الماضي مؤيدة للتجارب السابقة، خروج عن مبدأ التجربة، وإقامة مبدأ آخر مكانها. مصطفى صبري: القول الفصل هامش ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) انظر مصطفى صبري: القول الفصل ص ٢٥، ٢٩.

(٤) رواه البخاري: فى صحيحه جـ١ ص٣، ٣٧.

(٥) رواه البخاري: في صحيحه جـ ٩ ص ٣٩.

(٦) رواه البخاري: في صحيحه جـ ٩ ص ٤٠. ويلاحظ أن الأحاديث السالفة الذكر في شأن =

إذن عندهم جزء من النبوة يرشدهم إلى الاستدلال على صحتها وإمكانها إذا تبصروا فيه وترووا فى أمره [1] .

يقول الغزالى إن«عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات فكم من مستيقظ لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه» [2] .

وفى (المنقذ من الضلال) يعود الغزالى إلى نفس الموضوع ويفصله بعض التفصيل حيث يقول: (٣) «وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب: إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه، وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره وأقام البرهان على استحالته وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها: فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة، فكما أن للعقل طورا من أطوار الآدمى، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضا عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب. وأمور لا يدركها العقل» .

والعقل الإنسانى يؤمن بكثير من الأشياء مع عدم إدراكه لحقيقتها وكنهها إنه يؤمن بالكهرباء مع أنه لم يدرك حقيقتها ولكنه آمن بها عن طريق آثارها، فعليه كذلك إذا لم يدرك حقيقة الوحى أن يؤمن به عن طريق آثاره التى تتمثل في الحقائق الإلهية التى يأتى بها الأنبياء .

= الرؤيا،والتي تربط بينها وبين النبوة ورد فيها أن المراد بالرؤيا فيها الرؤيا الصادقة لا أى شيء يرى في المنام. فالرسول ـ ﷺ ـ يقول:إن«الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» (رواه البخاري فى صحيحه جـ٩ ص٣٩) ويقول ـ ﷺ ـ «الرؤيا ثلاث فرؤيا حق ورؤيا يحدث الرجل نفسه ورؤيا تحزين من الشيطان» (رواه البخاري فى صحيحه جـ٩ ص٤٨ والترمذى فى سننه جـ٤ ص٥٣٢ ـ ٥٣٧ ـ ٥٤٢)

(١) فالرؤي من دلائل النبوة لا كما يرى بعض الكتاب من أنها من عوامل تطورها
أنظر Hastings Rashdall: Philosophy and Religion p . 146

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٥ . (٣) ص ٨٠ .

إننا اليوم قد نكون أقدر على فهم هذه المسألة مسألة الوحى التى تعنى الاتصال ـ بطريق ما ـ بين الله ورسوله .

فهناك وقائع كثيرة تجرى من حولنا في كل لحظه ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية.

وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراك كثير من الأشياء التى يصعب على الإنسان بدونه أن يدركها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال وكأنه يطير عند أذنك ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك الكثير من الأحداث التى لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية وهذه الطاقة غير العادية لا تخص الآلات العلمية الحديثة، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا فالكلب مثلا يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذى مر من الطريق .

وهناك حيوانات كثيره تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا، فلقد أثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة «الإشراق» Telepathy فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) أو (العتة) وهى حشرة مجنحة ـ على نافذة مفتوحة فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضا بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى (الجندب) يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريقة غير عادية ـ ويسمع على مبعدة نصف ميل ـ ليدعو زوجه، وهذه الزوج ترسل أيضا وهى ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه وإنما يعرفه الجندب الذكر، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضا أن «أبو النطيط» (Grasshoper) لديه قدرة خارقة على السماع حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التى تحدث في نصف قطر من ذرة اليهدروجين!

وهناك أمثلة أخرى كثيرة، تؤكد إمكان وجود رسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة، وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه لا يدركه عامة الناس؟ مادام من الممكن أن توجد في هذا العالم

حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان ولكن تسجلها الآلات ؟ .

ومادامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى؟وقد تبين أن تجارب الإشراق والانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات وإنما توجد في الإنسان «بالقوة» (١) .

ولا يعنى ذلك القول بتأويل النبوة فهناك فوارق كثيرة بين خوارق الأنبياء وخوارق غيرهم ولكن ما قصدته مما سبق هو تقريب مسألة خرق العادة إلى الأذهان وأنها لا تقع في حيز المستحيل بل في حيز الممكن .

وفى أعجوبة: «التنويم المغناطيسى» آية عملية تمثل الوحى تمثيلا حسيا، فقد أصبح الرجل القوى الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوما عميقا لا يشعر فيه بوخز الإبر وهنالك يكون رهين إشارته وتنمحى إرادته في إرادته: فلو شاء أن يمحو من نفسه رأيا أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة .

فإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟ فذلك مثل حامل الوحى ومتلقيه عليهما السلام: هذا بشر مطواع ذو روح صافية يقبل انطباع العلوم فيه، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه فلا ينسى إلا ما شاء الله. بيد أن بعداً شاسعا بين هذا الوحى النبوى ووحى الناس بعضهم لبعض، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً، وكثيرا ما يترك وحيهم في نفس متلقيه أعراضا عقلية أو بدنية يصعب علاجها، فأين هذا من الوحى بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته، رسول من الملائكة ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملكى فإنه كما علمت لا يوحى إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير، وأما الرسول البشرى فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد كامل العقل قوى النفس والبدن (٢) .

وأما قول القائلين إن الملائكة أجرام علوية لا تهبط فمردود عليهم لتقريرهم بأن العقل والنفس جرمان علويان هبطا إلى الجسم وحلاّ فيه

---

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ص ٩٦ ، ٩٧ .
وانظر رءوف عبيد : مفصل الإنسان روح لا جسد جـ ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) انظر محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ٧٦ : ٧٨ .
وانظر د . رءوف عبيد : مفصل الإنسان روح لا جسد جـ ٣ ص ٧٦ .

وإذا كان الإنسان في عصرنا الحاضر استطاع الصعود إلى السماء بمركبة أو طائرة فإن ذلك ليقرب إلينا مسألة إمكانية صعود الرسول أو هبوط الملك إليه .

وإذا كان الإنسان في عصرنا الحاضر استطاع أن يحول المادة من صورة إلى أخرى (صلبة سائلة غازية) فإن هذا ليقرب إلينا مسألة إمكان التقاء النبى بالملك مع اختلاف طبيعتيهما إذ من الممكن أن تحول طبيعة أحدهما إلى طبيعة الآخر، وخاصة أن طبيعة الرسول ليست جسما خالصا وإنما له روح قدسية من عالم الأمر كما يقول الفلاسفة أو نورانية مستمده من نور الله كما يقول الصوفية .

ثم إن النبوة وإن كانت قد ختمت إلا أن من المعجزات ما هو خالد حتى الآن. ومن رحمة الله تعالى أنه جعل أعظم المعجزات على الإطلاق وهى القرآن الكريم معجزة خالدة .

فالقرآن الكريم معجزة كبرى خالدة وتدل أيضا على إمكانية وجود غيرها من المعجزات بل وتصرح بهذا الوجود في كثير من المواضع .

كما يدل على هذا الوجود أيضا للمعجزة الحسية علمى الطب والنجوم فإن من يبحث فيهما يعلم بالضرورة أنهما يدركان بإلهام إلهى وتوفيق من جهته تعالى ولا سبيل إليهما بالتجربة دائماً فإن من الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة، فكيف ينال ذلك بالتجربة وهكذا خواص الأدوية [1] فإنه يصعب إدراكها جميعا بالتجربة .

وإذا كانت المخلوقات مرتبة في سلسلة الكمال، وكانت أفراد كل صنف منها متميزة أيضا في درجة الكمال، فكان الإنسان أكمل من الحيوان، وكان الناس متفاوتون في درجة الكمال. فأن يوجد إنسان هو أكمل الناس ـ وهو المراد بالنبوة ـ فهو أمر ممكن .

ويرد الباقلانى على الطاعنين في إمكانية المعجزة بأنها إما أن تكون مستحيلة في العادة أو في قدرة الصانع، ولا يمكن أن تكون مستحيلة في قدرة الصانع، ومن قال بذلك فقد ألحد وترك الدين، ولا دليل على استحالتها في قدرة الصانع لأن

---

(١) انظر الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨٠ ـ ٨١ .

عدم المشاهدة لا يعنى عدم الوجود فنحن مثلا لم نشاهد خلق إنسان إلا من ذكر وأنثى والعقل والشرع يدلان على أن مبدأ الإنسان وهو آدم عليه السلام لم يكن من ذكر وأنثى فدل ذلك على أن عدم المشاهدة لا يعنى عدم الوجود ولا يمكن أن تكون المعجزة كذلك مستحيلة في العادة لأنه لا مانع من أن ينقض الله تعالى العادات ويظهر المعجزات على أيدى رسله [1].

ويبين مصطفى صبرى أن موقف هؤلاء المدعين لاستحالة المعجزة موقف لا ينم إلا عن ضعف عقل وسوء نية لأن من يؤمن بوجود الله ولا يؤمن بسعة قدرته التى وسعت خلق السموات والأرض لخلق معجزة تأييدا لرسله تعالى فذلك منهم حماقة إن لم تكن أكبر من حماقة الإلحاد كانت أظهر أما من لا يؤمن بوجود الله ويجعل نظام العالم عبارة عن المصادفة والفوضى كبوخنر إمام الملاحدة ولسانهم المدافع عنهم، فلا يسعهم إنكار المعجزات بحجة أنها تخالف نظام العالم الذى أنكروه أولا[2].

ثم إن هؤلاء الذين يستشهدون بقوله تعالى ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[3] على نفيها [4] لا محمل لاستشهادهم لأن المراد بالآية إنما هو تبين سنة الله في أمم بعث فيهم أنبياء وأيدهم بالمعجزات فعصوهم وكذبوهم وسنة الله إنزال العذاب عليهم، كما قال تعالى:[5] ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ وكما قال:[6] ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾، وكما قال فى سورة الأحزاب ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾[7] وفي سورة الإسراء ﴿وإن كادوا

---

(١) انظر الباقلاني : التمهيد ص ١٠١ ـ ١٠٢ . (٢) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ٣٥.
(٣) فاطر : ٤٣ (٤) انظر على سبيل المثال : هيكل: حياة محمد ص ٤٤، ٤٥، ٥٤ من مقدمة ط٢.
(٥) الصافات : ١٧١، ١٧٧ . (٦) فاطر : ٤٢، ٤٣ . (٧) الأحزاب : ٦٠ ، ٦٢ . .

ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [1].

وبنفس هذا المنهج حاول سبينوزا[2] نفى المعجزات مستشهدا على ذلك بما ورد فى المزامير عن الطبيعة من أن الله تعالى: «ثبتها إلى الدهر والأبد. وصنع لها حداً فلن تتعداه»[3]. وبما ورد فى سفر الجامعة: «قد عرفت أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد. لا شيء يزاد عليه ولا شيء ينقص منه»[4] ولكن لا يخفى علينا أن لفظ «الأبد» فى لغة التوراة لا يعنى زمانا بلا نهاية وإنما يعنى زمانا طويلا فقط. فقد جاء في سفر التثنية: «لا يدخل عمونى ولا مؤابى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد فى جماعة الرب إلى الأبد»[5] فقد حدد نهاية الجيل العاشر بلفظ «الأبد» .

ثم إنه كيف يمكن أن يكون معنى الآيات كما ظنوا فتكذب الكتب المقدسة ما نصت هى نفسها عليه من أنباء الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة لسنة الكون، التى يؤكد عليها القرآن بقوله ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى﴾ [6].

ثم إنه كيف «يكون القادر المختار[7] عاجزا عن تغيير ما وضع؟ أما أنه لم يغيره فيما رأينا وهو سنته التى لن نجد عنها تحويلا فذلك بالنسبة إلينا، ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون. فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم، ومصلحتنا في استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقا في أمورنا وحاجاتنا وتحصل لنا منه قواعد مضبوطه. ولكن نظام النار هذا مثلا الذى نحن

---

(١) الإسراء : ٧٦ - ٧٧ .
(٢) سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٨ .
(٣) المزامير : ١٤٨ / ٦ .
(٤) الجامعة : ٣ / ١٤ .
(٥) التثنية : ٢٣ / ٣ .
(٦) يوسف : ١١١

(٧) أما قول سبينوزا « إن القوانين العامة للطبيعة ليست إلا مجرد أوامر إلهية تصدر عن ضرورة الطبيعة الإلهية وكمالها. إذن فلو حدث شيء في الطبيعة يناقض قوانينها العامة. كان هذا الشيء مناقضا أيضا لأمر الله وعقله وطبيعته» انظر : سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٣ .
فمكمن الخطأ هنا في فكر سبينوزا هو سلبه صفة الاختيار عن الله تعالى وكأن سبينوزا وهو الفيلسوف الحر مازال فى داخله ذلك الرجل اليهودي الذي لا يعرف كيف ينظر إلى الله تعالى نظرة إجلال ليطلق عليه قوله تعالى «وما قدروا الله حق قدره الزمر (٦٧) ثم هل يعني سلب صفة الاختيار عن الله تعالى هو سلبها عن الإنسان أيضا؟ وإلا فهل يمكن للإله غير المختار أن يخلق الإنسان المختار ؟

مقيدون به ـ لا خالق النار وواضع نظامهـا ـ ليس بمانع أن يجعلها الله بردا وسلاما على نبيه وخليله إبراهيم صلوات الله وسلامة عليه. تأييدا لرسالته من عنده»[1] .

والحواس التى شهدت قوانين الطبيعة وثباتها هى التى شهدت نقضها على يد الرسل. والطعن في هذه الحواس في حالة رؤيتـها للمعجزات طعن فيـها في حالة رؤيتها لقوانين الطبيعة الثابتة .

والعادات الطبعية ليس فيها سـنة لازمة لا تتحول، فإنه قد عرف أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد إن لم تـكن وهذا تبديل، كما أنه تعالى يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غـير الأرض والسـموات﴾[2] وهذا تبـديل آخر. هذا فـضلا عن أن انتقاض عامة العادات معلوم لدي الكـافة فإن كانت العادات قد جرت ببنى آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين فقد انتقـضت هذه العادة في خلق آدم وحواء والمسيح عليهم السلام كما كان إحياء الموتى غير مرة مخالفا للعادة وناقضا للسنة الإلـهية .

ثم إن نظام العـالم العام الذى كـان دليـلا على وجود الله تعـالى الذى هو واضع النظام يكون تغيـيره الذى نعبر عنه بالمعجـزة والذي هو أيضا نظام من الله. لكنه نظام خاص استثنائى دليلا على وجود أنبيائه .

ومن هنا يمكننا أن نعد تأييد الأنبياء بالمعجزات من سنن الله أيضا [3] .

وأما قول من أنكر المـعجزة بدعوى أن ذلك مناف لحكمـة الله تعالى فمن ذا الذى أحاط بحكمة الله تعالى أو بسننه علما .

ثم إن الفلاسـفة الذين أطبـقوا على إنكار خـوارق العادات يلزمـهم القول بالاعتراف بها في مسائل:

المسألة الأولى: إنهم جوزوا حدوث إنسان بالتولد لا بالتوالد وقرروا ذلك بأن قالوا: البدن الإنـسانى إنما تولد من مقادير مـخصوصة من العناصر الأربـعة. فتلك المقادير اختلطت وامـتزجت في مدة معلومة، فـحصل بسبب ذلك الامتزاج كيـفية مزاجية مـعتدلة ـ وإذا تم حدوث البدن بهذا الطريق وجب حـدوث النفس المتعلقة بتـدبيره، وحـينئذ يـتم تكون الإنسان، والموقـوف على الممكن ممكن فكان حـدوث

---

(١) مصطفى صبري : القول الفصل : ص ٢٧ .

(٢) إبراهيم : ٤٨ .

(٣) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الإنسان المعين على سبيل التولد ممكنا، وإذا كان ذلك ممكنا كان انخراق العادات على قولهم جائزا .

المسألة الثانية: انهم يقولون إن هيولى عالم الكون الفساد: هيولى مشتركة بين الكل، وإنما اختص هيولى الجسم المعين بالصورة المعينة لأن شكلا فلكيا اقتضى كون تلك المادة مستعدة لقبول تلك الصورة الخاصة والأشكال الفلكية غير مضبوطة وغير معلومة. وبهذا التقدير فإنه لا نوع من أنواع الخوارق إلا وهو ممكن محتمل[1]

إلا أنه ليس كل ما كان ممكنا في طبيعته يقدر الإنسان أن يفعله ومن ثم فإن المعجزة وإن كانت ممكنة في نفسها إلا أنها ممتنعه في حق غير الرسل .

ونحن في عصرنا الحديث نفاجأ بكثير من المفكرين المسلمين ومن أهل الكتاب تزعجهم مسألة المعجزات الحسية فيتغاضون عنها ويحاولون إنكارها بالرغم من إيمانهم رافعين شعار أن الإيمان إنما يؤسس على المعجزة المعنوية الهدائية لا الحسية .

يقول «إتيان شاربنتيه» «وبرناردبوى» وغيرهم من الكتاب المسيحيين في كتابهم«المعجزات في الإنجيل» «إن كثيراً من المسيحيين تزعجهم معجزات الإنجيل. . فهناك ميل لدى بعض المسيحيين إلى التغاضى عنها في التعليم المسيحى أو إلى شرحها شرحا طبعيا »[2] .

فإذا كانت المعجزات من وجهة نظر العصور السابقة من الدعائم الكبرى للمسيحية، فهى الآن من الصعوبات الأساسية والمعوقات لقبولها[3] .

ومن الكتاب المسلمين نجد مثلا محمد حسين هيكل يقول:[4] «إن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية سامية، وإنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق» .

وكذلك نجد محمد رشيد رضا في الوحى المحمدى يقول[5] « العجائب التى

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١٠٠ .

(٢) إتيان شاربنتيه وآخرون : المعجزات فى الإنجيل ص ٦٧ .

(٣) انظر John Lewis : The Religions of The World p . 143

(٤) هيكل : حياة محمد ص ٤٤ من مقدمة ط ٢ .

(٥) انظر رشيد رضا : الوحي المحمدى ص ٣٠ ، ٣١ .

بنيت على أساسها الكنائس النصرانية [1] على اختلاف مذاهبها أصبحت في هذا العصر حجةٍ على دينهم لا له وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التى أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بنى على العقل والعلم، وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الأفراد، وترقية مصالح الاجتماع.

وأما آية الرسول التى احتج بها على كونه مبعث من عند الله تعالى فهى القرآن، وأميته عليه الصلاة والسلام فإنما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان .

أما تلك العجائب الكونية فهى مثار شبهات وتأويلات كثيرة في رواياتها وفى صحتها وفى دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين فى هذا العصر» .

وفريد وجدى نجد له أيضا في مجلة الأزهر مجموعة مقالات بعنوان«السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة» يحاول فيها أن يصور الإعجاز في الرسالة المحمدية بما يشبه هذا النوع الطبعى الذى يكون إعجازه في مبلغه من الكمال المنقطع النظير لا فى خارقيته للطبيعة .

وطه حسين أيضا في «مجلة الثقافة» نجد له مقالاً بعنوان «القلب الرحيم» يقول فيه: وما رأيت أعجب من أمر محمد ـ ﷺ ـ فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء، رجل كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات فيتبرأ منها، ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم وأنه لم يرسل ليبهر العقول بالأحداث العظام، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآنا يتحدث إلى عقولهم فيملأها هدى ويتحدث إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبرا. ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التى تبهر العقول وتسحر الألباب دون أن تحدث في طبيعة الأشياء حدثا أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها

---

(١) ففي أغلب الأديان الرئيسية تبدو روايات المعجزات إضافات خارجية ثانوية ولكن في المسيحية فهي تلعب دورا أساسيا فطبقا للأناجيل فإن المسيح جذب الانتباه أساسا بالأشفية المعجزة خاصة للمرضى المعتقد بمس الشياطين لهم.

انظر : The Encyclopaedia Americana Vol .19, p . 217

المألوف، إنما هى معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيره ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة و مفحمة للمكابرين أ.هـ .

ومعنى ذلك أن النبوة كانت على خلاف الطبيعة في الأنبياء حتى أصبحت في نبينا طبعية لكن عيب المخالف للطبيعة عندهم أنه مستحيل الوقوع وهو يتضمن الطعن فى نبوة غيره من الأنبياء طعنا لا يرضاه الإسلام، لكون نبوتهم مكفولة من القرآن، وفضلا عن ذلك فإن هذا الطعن وذاك المدح إنما يكونان طعنا ومدحا على مزاج الملاحدة الماديين القائلين باستحالة ما يخرق سنة الطبيعة حتى إذا سمعه بعض المسيحيين انقلب القدح في نظرهم مدحا، والمدح قدحا، واعترافا من كتاب المسلمين بعدم كون محمد - ﷺ - نبيا، لأن النبى الحقيقي لابد أن يكون له حالة يضيق عنها نطاق الطبيعة وتتعداها إلى ما فوقها لتكون علامة رسالته من الله ويكون الذين يتبعونه على بينة من أمره (١) .

يقول مؤلفو كتاب علم اللاهوت النظامى(٢)«لولا إثبات المسيح لاهوته بتلك الأعمال المقنعة لكان عدم الإيمان به من أصغر الخطايا»لأنه يقول:(٣) «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيرى لم تكن لهم خطيئة»ويقول (٤) :«إن كنت لست أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى» ويقول(٥):«لاتؤمنون إن لم تروا آيات وعجائب» .

ويقول العقاد أيضا - مهونا من شأن المعجزة الحسية تهوينا غير مقبول (٦) «إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا، ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته، فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهى أوضح شيء فهما لمن أحب أن يفهم وهى أقوم شيء سبيلا لمن استقام» .

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٢٧ ، ١٢٨ . .
(٢) نخبة من علماء النصارى : علم اللاهوت النظامي ص ٥٠٧ .
(٣) يوحنا : الأصحاح الخامس عشر آية ٢٤ .
(٤) السابق : الأصحاح العاشر آية ٣٧ .
(٥) السابق : الأصحاح (٤) آية (٤٨) .
(٦) العقاد : عبقرية محمد ص ٢٧ .

إلا أنه لا يمكن للعقاد أن ينكر تفوق القرآن على جميع أسباب النجاح التى عددها من التهيؤ العام، والحاجة العامة في العالم ومن اجتماع أنواع العبقرية في شخص الداعى، ثم إنه إذا كان القرآن كلام الله المنزل بنصه على محمد بواسطة الملك، فإن ذلك يتناقض مع المفروض آنفا في نبوة محمد من العبقرية المستغنية عن الخوارق الغيبية لكونه أكبر خارقة، وأكبر اتصال منه بعالم الغيب .

وإن لم يكن القرآن كلام الله بل كلام محمد نفسه عزاه إلى الله كان محمد كاذبا في نسبة القرآن إلى الله على الرغم من قول القرآن: ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء**﴾ (١) وكان هذا الكذب أكبر مناف للنبوة والعبقرية معا. فإن تساهل العبقريون وذهبوا فيما بينهم إلى عدم التنافى بين العبقرية والكذب غير مصارحين به غير أمثالهم فماذا يقولون في تحدى القرآن الإنس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثله؟مع أنه لا يتصور صدور التحدى عن عاقل من البشر على أن يأتوا بكلام مثل كلامه، فهل يمكن عند دعاة العبقرية أن يكون محمد العبقرى مجنونا إن أمكن عندهم أن يكون كاذبا؟ وهل يجوز عندهم ائتلاف العبقرية بالجنون أيضاً كما جاز ائتلافها بالكذب؟(٢) .

ثم إن منكرى المعجزات البانين إنكارها على دعوى استحالتها لا يفرقون بين المعجزات الكونية والعقلية، ويرون الكل مخالفا لسنة الكون، كما يرون المخالف لسنة الكون محالا .

فمتى بلغ أي شيء مبلغ المعجزة والخارقة خالف سنة الكون وخرقها، وإلا لم يكن معجزة إلا في تعبيرات الأدباء المتجوزين، حتى إن النبوة والرسالة بمعناهما المعروف عند الملليين معجزة مخالفة لسنة الكون، فمن يقول باستحالة المخالف لسنة الكون يقول باستحالة النبوة والرسالة أيضا .

ومن ثم فإن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ـ ﷺ ـ وقد يطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه بشر. أما أنه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه

---

(١) الأنعام : ٩٣ .

(٢) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٣ ـ ١٤ .

ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق.

وإنكار المعجزات الخارقة للنواميس يلزمه إنكار النبوة لسببين: أولهما كون المعجزة علامة النبوة، فمن ينكرها فلا بد أن ينكر النبوة. وثانيهما أن منشأ إنكار المعجزة كونها من الأمور الغيبية مع أن النبوة نفسها التى هى اتصال خاص بالله من الأمور الغيبية أيضا .

ثم إن إثبات إمكان النبوة والمعجزة والنشأة الثانية فمن أسهل الأمور بعد ثبوت وجود الله وإرادته وقدرته على كل شيء[1] ومن هنا قال «شيله رماخر» و «ريتجه. ل»: « إن الإيمان بالمعجزات لا ينفك عن الإيمان بالله» ومعناه أن من يؤمن بالله فلابد أن يؤمن بالمعجزات أيضا .

ثم إن منكرى المعجزات الحسية لنبينا ـ ﷺ ـ من المسلمين إن كان إنكارهم مبنى على أنها مخالفة للعلم وسنة الكون وكان معنى مخالفتها لهما أنها غير واقعة بل غير ممكنة الوقوع لزم أن لا تقع من الأنبياء السابقين أيضا وأن تكون أنباء وقوعها المقصوصة فى القرآن كاذبة مختلقة كأنباء وقوعها من نبينا المروية فى كتب الحديث والسيرة .

فما دام المنكرون لا يجترئون على التشكيك فى صحة أنباء القرآن فلا مندوحة لهم أن يعترفوا بالمعجزات الكونية ولو منسوبة إلى الأنبياء الأولين، اعترافا لا يبقى بعد ذلك مانع يمنعهم من الاعتراف بها منسوبة إلى نبينا ويضطرهم إلى القيام بدعوى منكرة تزول معها الثقة عن أفضل كتب الإسلام وأصحها بعد القرآن مثل كتاب البخارى ومسلم وسائر كتب السنة وموطأ مالك ومسند أحمد .

ثم كيف لا يعتبر هؤلاء معجزات الأنبياء حجة ولا تعبير القرآن عن تلك المعجزات تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآية الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان حجة فى أنها حجة .

---

(١) انظر David PatricK : Chambers's Encyclopaedia Vol . ll . p . 227

قال تعالى:(١) ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا﴾ .

وقال:(٢) ﴿ قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم﴾ .

وقال:(٣) ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ .

وقال:(٤) ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ .

وقال:(٥) ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ .

وقال:(٦) ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء،واضمم إليك جناحك من الرهب،فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملإيه﴾ .

وقال:(٧) ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ .

وقال:(٨) ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ .

ثم إن إيهام أن المعجزات الكونية أظهرها الله على أيدى رسله عبثا لأنها لم تنجح في تأييد رسالاتهم ولم تكن خير وسائل إلى اقتناع الناس بصدقهم .

يعنى أن الله تعالى ما أصاب في اختيار المعجزات لأنبيائه إلا في معجزة القرآن التى تخاطب العقول والأفهام .

والذين ينتقدون الخوارق الكونية من معجزات الأنبياء تارة بحجة التباسها بأعمال السحرة وتارة بعدم كونها ضامنة لإيمان الأمم التى بعثوا إليها فقد تعدوا بالمعجزات حدودها وطالبوا الأنبياء بمعجزات ملجئة لا تتفق مع اختيار المكلفين وتجعل الإيمان بالغيب معاينة لا يبقى معها امتياز المؤمن على الكافر بل يضطر الجميع عندها إلى الإيمان،وليس لنا أن نشترط في نصاب دلالة المعجزة على صدق النبى أن يؤمن به كل من شهد معجزته لأن دلالة المعجزة على صدق النبى في دعوى النبوة لا تفوق دلالة البراهين الحسيةو العقلية على وجود الله ومع هذا لا

---

(١) يونس :٧٦،٧٧ . (٢) آل عمران :١٨٣ . (٣) الإسراء : ١٠١ . (٤) البقرة :٢٥٣ .
(٥) البقرة :٥٣ . (٦) القصص : ٣١-٣٢ . (٧) النازعات : ٢٠ . (٨) الذاريات : ٣٨ .

تؤثر تلك البراهين في قلوب الملاحدة الضالين ولا يحد ذلك من قيمتها عند ذوى العقول السليمة ؟ .

ولا يلزم أن تكون المعجزة حتى معجزة الهداية ضامنة للهداية بالنسبة إلى كل إنسان، وهذا القرآن مع كونه في رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح الله صدره للإسلام فمسألة الهداية بيد الله فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويهدى من يهديه إذ شاء من غير معجزة ومن غير نبى، إلا أنه لا يعذب الناس حتى يبعث رسولا وبالمعجزات تتم حجته عليهم (١) .

ثم إنه إذا كانت المعجزات الحسية قد تشتبه بالسحر، فالمعجزات الهدائية قد تشتبه أيضا بالعبقرية .

فتلستوى وخاصة في كتابة المترجم باسم«حكم النبى محمد»(٢) وميكل هارت في كتابه المترجم باسم«الخالدون مائة أعظمهم محمد»(٣) وغيرهم كثيرون(٤) أشادوا بالرسول ـ ﷺ ـ وبدعوته ومع ذلك أرجعوا كل ذلك إلى العظمة الشخصية لا إلى النبوة .

وهؤلاء المنكرون للمعجزات الحسية اكتفاء بالمعجزات الهدائية غافلون عن حكمة الجمع بين الإعجاز الحسى والمعنوى كما أوضحناها في مبحث نسبية الدلالة(٥) .

وأما قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذر ولكل قوم هادى﴾(٦)وقوله ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾(٧)، وقوله ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾(٨)وقوله﴿و يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب﴾(٩)

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ـ الصفحات ١٠، ١١، ٢٤، ٦٢، ٧٨، ٨٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ترجمه إلى العربية سليم قبعين ـ مكتبة ابن سينا ـ ١٩٩٠م

(٣) ترجمه إلى العربية أنيس منصور : الزهراء للإعلام العربي سنة ١٩٨٦ م

(٤) كبرنارد شو، وجان جاك رسّو ولامارتين وغيرهم .

(٥) انظر مبحث نسبية الدلالة فى الفصل الخامس من الباب الرابع.

(٦) الرعد : ٧ .

(٧) العنكبوت : ٥٠ .

(٨) الأنعام : ٣٧

(٩) الرعد : ٢٧ .

، وقوله ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتينا بآية كما أرسل الأولون﴾ (١) .

فالحكمة فى إنزال هذه الآيات تتصور في أن كتاب الإسلام يرمى إلى تهذيب العقول وهدايتها إلى رشدها وقد قد كان الذين كتبوا التوراة والإنجيل للنصارى زعموا المسيح إلّها يقدر على التصرف في الكائنات فالقرآن الذى هو كتاب دين التوحيد يعتنى بتصحيح تلك العقيدة ويكرر أمر الله لنبيه بإعلان أن كل شيء بيد الله ليس للنبى من الأمر شيء وإنما هو عبده ورسوله. وإنما الآيات ككل شيء عند الله لا يقدر محمد على الإتيان بها من تلقاء نفسه. فيقول الله له: ﴿ليس لك من الأمرشيء﴾(٢)، ويقول: ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله،ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾(٣) ، ويقول ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك أن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾(٤). وحتى يقول ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾(٥) وكان النبى - ﷺ - من شدة حرصه على هدايه الناس أن قال الله عنه﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (٦) فقد كان يتمنى نزول ما يسألونه من الآيات لكن الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد،ولا يشرك في حكمة أحدا،يقول لنبيه ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين،إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾(٧) ويقول ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية،ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾(٨)، فهذا الخطاب من الله لنبيه في القرآن يعطى فكرة جدية عن عقيدة الإسلام،كيف تقدر فيها عظمة سلطان الله فوق عباده،كائنين من كانوا،كما أنه يعطى فكرة جدية عن القرآن،هل يمكن أن يكون كلام سيدنا محمد وفيه هذه الآية الآخيرة؟ فهذه الآية واللاتى ذكرنا قبلها وأمثالها التى لم نذكر مثل ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾(٩)نزلت لتفهيم الفرق بين الرب

---

(١) الأنبياء : ٥ . (٢) آل عمران : ١٢٨ . (٣) الأعراف : ١٨٨ .
(٤) الأنعام : ٥٠ . (٥) القصص : ٥٦ . (٦) الكهف : ٦ .
(٧) الشعراء : ٣-٤ . (٨) الأنعام : ٣٥ . (٩) القصص : ٦٨ .

والمربوب وتثبيته فى قلوب المسلمين ليعلموا أنه ليس في استطاعة محمد أن يأتى بآية ولا بأي شيء إلا بإذن من ربه ورب كل شيء، وليس هذا خاصا بمحمد(ﷺ) بل يستوى وسائر رسل الله(١) كما قال القرآن أيضا: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾(٢)وقال على لسان الرسل ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده،وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ (٣) ولم يستلزم ذلك عدم وجود معجزات لأولئك الرسل .

ومن ثم فإن دعوى أن الرسول - ﷺ - لم يؤيد بالمعجزات الكونية، وأن القرآن لم يرد فيه ذكر معجزة كونية منسوبة إلى نبينا، فدعوى باطله (٤) .

فآيات القرآن نفسه تدل على وجود معجزات لنبينا - ﷺ - غير القرآن، وإن كان بعض تلك الشواهد مجملا لا يدل على حادثة معينة. ولسنا بصدد التفصيل لواقعات المعجزات فمحلها كتب الحديث والسيرة وكتب دلائل النبوة، وحسبنا في صددنا ما أشير إليه في الآيات الآتية (٥) .

١ - ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ (٦) .

٢ - ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر.وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾(٧) .

٣ - ﴿وإذ رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ (٨) .

٤ - ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (٩) .

٥ - زيادة الواو الدالة على آية أو آيات مقدرة يعطف عليها ما بعدها في قوله تعالى ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله،وإنما أنا نذير

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٤٩ .

(٢) الرعد : ٣٨ . (٣) إبراهيم : ١١ . (٤) انظر فى هذا الادعاء الباطل:

Gibb and Kramers :Shorter Encyclopaedia of Islam p 389 .

Mircea Eliade: the Encyclopedia of Religion Vol . 9 . p . 546

(٥) انظر في تفصيل ذلك مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٥٦ : ١٦٠ .

(٦) الأنعام : ٤ ، يس : ٤٦ . (٧) القمر : ١، ٢ .

(٨) الصافات : ١٤ ، ١٥ . (٩) الأنعام : ١٢٤ .

مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾(١) . والمعنى ألم تكفهم الآيات ولم يكفهم أنا أنزلنا علك الكتاب يتلى عليهم.

٦ ـ زيادة الواو في قوله تعالى ﴿وقالوا لولا يأتينا باية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ (٢)، والمعنى ألم تأتهم آية، ولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى .

٧ ـ ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ (٣) .

٨ ـ ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب﴾(٤) .

٩ ـ ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾(٥) .

١٠ ـ ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة ألاف من الملائكة منزلين .بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ (٦) .

١١ ـ ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (٧) .

١٢ ـ ﴿يا أيها الذين أمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾ (٨) .

نزلت فى بنى النضير من اليهود لما ائتمروا بالنبى ـ ﷺ ـ حين أتاهم مع بعض خواص أصحابه يستقرضهم في دية رجلين وقد كانوا عاهدوا النبى على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات فقالوا اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد ثم

---

(١) العنكبوت : ٥٠-٥١ .
(٢) طه : ١٣٣ .
(٣) الأنعام : ١٠٩-١١٠ .
(٤) الأنفال : ١٢ .
(٥) الأنفال : ١٧ .
(٦) آل عمران : ١٢٣ ، ١٢٥ .
(٧) الأنفال : ٩ .
(٨) المائدة : ١١ .

تآمروا على أن يطرح أحدهم رحى من فوق الجدار الذي جلس مستندا إليه فنزل جبريل وأخبر بذلك» .

١٣ ـ ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها. وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [١] .

نزلت في هجرة الرسول ـ ﷺ ـ منبئة بدنوّ هلاك الذين أخرجوه من بلده. وكان المؤمنون وقت الهجرة ونزول الآية في غاية الضعف فما مضت سنة حتى قتل صناديد قريش في بدر وفاز المسلمون بالنصر الموعود .

١٤ ـ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ [٢] .

كان المؤمنون وقت نزول الآية في قلة وعجز لا ينامون الليالى آمنين على أنفسهم من مهاجمة الأعداء المحيطة بهم فمن ذا الذى كان يطوف بباله أن تكون من المسلمين دولة عظمى تعلو كلمتها في وجه البسيطة، كما تبشر به الآية؟ حتى أنه كان من المستبعد أن يتغلب المسلمون على قبائل العرب المجتمعة على معاداتهم، والآية المتقدمة تنبئ بتمزق القبائل أمامهم» .

١٥ ـ ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [٣] .

١٦ ـ ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ [٤] .

الآيتان تبشران بفتح مكة وكانت الأولى منهما نزلت أثناء الهجرة الثانية عند العودة من الحديبية .

١٧ ـ ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ [٥] . وفي هذا إشارة إلى الحروب الواقعة في عهد الخلفاء الراشدين .

---

(١) الإسراء : ٧٦ – ٧٧ .
(٢) النور : ٥٥ .
(٣) القصص : ٨٥ .
(٤) الفتح : ٢٧ .
(٥) الفتح : ١٦ .

١٨ ـ ﴿الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهو من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ (١).

١٩ ـ ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾ (٢).

ثم إن آحاد المعجزات الحسية لرسولنا ـ ﷺ ـ تفيد فى مجموعها العلم القطعى لاختصاصه بخوارق العادات .

---

(١) الروم : ١ ، ٦ .

(٢) الإسراء : ١ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

مصدر المعجزة

obeikandl.com

فهناك من يطعن في المعجزة بالطعن في مصدرها، قائلين: إن الدلالة القطعية لم تقم على أنها من عند الله تعالى، بل يجوز أن تكون من فعل غيره .

ولذلك الغير عدة احتمالات :

١ ـ القول بأن المعجزة من فعل الرسول :

فهناك من يرى أن المعجزة إما تابعة لقوة التخيل والعقل العلمى وإما تابعة لقوة العقل النظرى. وإما تابعة لقوة النفس [١].

وسيأتى بيان ذلك عند حديثنا عن خصائص النبوة في مبحث التأويل، والرد على ذلك في تعليقنا العام على مبحث التأويل [٢].

وسيأتى مزيد من الجواب عن ذلك في مبحث وحدانية المؤثر .

٢ ـ القول باحتمال كون المعجزة من تأثير قوى الأدوية :

فيرى بعض المنكرين أنه من المحتمل أن مدعى الرسالة وجد دواء كان هو سبب المعجزة، ومع قيام هذا الاحتمال فسدت دلالة المعجزة على صدق الرسول .

وبالطبع فهذا الرأي باطل لأن فيه إنكارا لما هو بدهي وضرورى عند كل إنسان من أن إحياءالموتى وقلب العصا حية والإتيان بالقرآن وغير ذلك من المعجزات لا يخضع لدرك خواص الأدوية والموجودات [٣].

٣ ـ القول باحتمال كون المعجزة من أفعال الجن والشياطين :

فيرى بعض المنكرين أنه من المحتمل أن تكون المعجزة من فعل الجن والشياطين، ووجود الجن والشياطين وإثبات القدرة العظيمة لهم جائز عقلا ومتفق عليه بين أرباب الملل والنحل .

ويضيف هؤلاء المنكرون ـ أن الأنبياء وإن جاءوا بلعن الشياطين إلا أن الشياطين إنما يتحملون ذلك اللعن منهم ليحصل غرضهم من ترويج الباطل، ثم إنه لعل المراد باللعن طائفة منهم والآتون بالمعجزات أقوام آخرون .

---

(١) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٥١ وما بعدها . ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٦١ وما بعدها. (٢) انظر الفصل الرابع من الباب الرابع .

(٣) انظر الفرق بين المعجزة والعلم في الفصل الثالث من الباب الثانى .

بالإضافة إلى أن هذه الشبهات لا يقبح صدورها من الله تعالى، لأنه لوجزم بها المكلف لكان التقصير منه حيث جزم لا في موضع الجزم ثم إن إنكار هذه القوة للجن والشياطين يوجب تكذيب الأنبياء الذين أخبروا بذلك [1].

وجواب ذلك: أن الأنبياء وإن أطبقوا على إثبات القوة العظيمة للجن والشياطين إلا أنهم أوضحوا أن لهذه القوة حدودا لا تتخطاها إلى خرق العادة خرقا حقيقيا كما هو الحال في المعجزة .

ففى القرآن نجد قوله تعالى ﴿**فلما خرتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**﴾ [2] ونجد أيضا قوله تعالى ﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ [3].

ثم إن قدرة الجن معلومة للإنس أو على الأقل لبعض الإنس، وبالتالى يمكن معرفة الفرق بين ما يأتون به وبين المعجزة .

أما الشياطين فنحن وإن لم نعرف قدرتهم بالتجربة كما هو الحال مع الجن إلا أننا لم نعرف وجودهم إلا بالشرع الذى أوضح لنا قدرتهم وأنها لا تبلغ مبلغ خرق العادة الحقيقي أبدا .

ثم إنه إذا كانت الخوارق غير الحقيقية من فعل الجن والشياطين تأييدا للكاذب فما أسهل تفريقها عن الخوارق الحقيقية التى لا تكون إلا من الله تعالى وذلك بالنظر إلى حال الداعى وقيمة الدعوة، وفى مبحث وحدانية المؤثر سيأتى مزيد جواب عن ذلك .

٤ ـ القول باحتمال كون المعجزة من أفعال الملائكة :

فيرى المنكرون إن أكثر أهل الدنيا أطبقوا على إثبات الملائكة والقرآن دل على الإيمان بهم فقال : ﴿**والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**﴾[4].

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١٠٩ ، ١١٢ . والأربعين جـ ٢ ص ٩٩ .

(٢) سبأ : ١٤ (٣) النمل ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) البقرة : (٢٨٥) .

والقرآن دل أيضاً على أنهم أصحاب القدرة الظاهرة، والقوى الغالبة فإن جبريل عليه السلام قلع مدائن قوم لوط من قعور الأرض ورفعها إلى قريب من السماء، ثم رماها على الأرض[1] وأيضا القرآن يدل على أنه إنما وصل إلى محمد عليه السلام من قبل جبريل. فإنه قال[2] ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ وقال [3] : ﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم﴾ فبين: أن هذا القرآن إنما وصل إلى محمد عليه السلام بواسطة رسول كريم. وقال أيضا[4]: ﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ﴾ .

ومن ثم فقبل العلم بعصمة الملائكة عن القبائح والأكاذيب والأضاليل، نجوز أن تكون هذه المعجزات إنما ظهرت على الأنبياء من قبلهم وبإعانتهم، وعلى هذا التقدير فلا يبقى في هذه المعجزات فائدة البتة، ما لم نعلم كون الملائكة معصومين من الأباطيل والأكاذيب، والعلم بعصمتهم لا يحصل من الدلائل العقلية بل من الدلائل النقلية، والعلم بصحة الدلائل النقلية يتوقف على العلم بصدق الرسل في ادعاء الرسالة، والعلم بصدقهم يتوقف على عصمة الملائكة، وذلك دور، والدور باطل [5] .

ويجاب عن ذلك بأن الملائكة لا يعرف وجودهم إلا من الشرع الذي عصمهم[6] وبالتالى فإن صحة الدلائل النقلية لا يتوقف على العلم بعصمة الملائكة، لأن الملائكة قبل وجود الدلائل النقلية لا دليل على وجودهم أصلا .

ثم إن تفرقة الرسول بين وحى الملاك ووحى الشيطان أو بعبارة أخرى طرق معرفة الرسول كونه رسولا، فتفصيل الكلام عنها في مبحث دلالة المعجزة.

هذا بالإضافة إلى أن كون المعجزة من فعل الملائكة لا يتعارض مع كونها من تأييد الله تعالى، لأن الله وحده هو المؤثر، ولا مؤثر سواه، إما مباشرة وإما عن طريق الأسباب المخلوقة فالله هو خالق الأسباب والمسببات. وهو قادر على خلق

---

(١) نجد ذلك فى قوله تعالى ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ النجم : ٥٣ .

(٢) البقرة : ٩٧ .

(٣) التكوير : ١٧ ، ١٩ . (٤) النجم : ٥ ، ٦ .

(٥) انظر الرازى : النبوات ص ١١٢ ١١٣ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ والأربعين جـ٢ ص ٩٩:١٠٠ .
وانظر الباقلاني : البيان ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٦) انظر ملحق (٣) .

المسببات بدون أسبابها، وبدون أسباب مطلقا ولكنها الحكمة الإلهية في وضع قانون السببية، ولها أن تخرقه وقتما شاءت وكيفما شاءت، وقد فصلنا ذلك في مبحث مستقل بعنوان وحدانية المؤثر.

وفى موضوع المعجزات لما أراد الله تعالى لمعجزاته التى يؤيد بها أنبياءه أن لا تعارض، ولما جعل الله تعالى ملائكته معصومين وخصهم بالقدرة العظيمة، فلا مانع من جعلهم أسبابا في معجزاته التى يؤيد بها أنبياءه .

والقرآن والسنة والعقل يؤيدون ذلك وقد فصلنا ذلك عند حديثنا في شروط المعجزة عن اشتراط كونها خارقة للعادة وكونها مما ينفرد تعالى بالقدرة عليه .

٥ ـ القول باحتمال كون المعجزة بسبب طالع النبى :

فيرى المنكرون أن الفلاسفة قد اتفقت على أن للأجرام الفلكية والاتصالات الكوكبية تأثيرات مخصوصة في أحوال هذا العالم .

وبتقدير صحة ما قالوه لا يمتنع أن يكون اختصاص مدعى النبوة والرسالة بهذه المعجزات إنما كان لأجل اشتمال طالع مولده على ذلك .

وإذا ثبت أن هذا الاحتمال قائم ظهر أنه لا سبيل البتة إلى القطع بأن هذه الخوارق التى ظهرت على الأنبياء من فعل الله تعالى [١] .

٦ ـ القول باحتمال كون المعجزة من أفعال الأفلاك والكواكب [٢] .

ويقول المنكرون أيضا إنه قد اتفقت الفلاسفة والصابئة على أن الأفلاك والكواكب: أحياء ناطقة مطلعة على جميع أحوال هذا العلم وبتقدير صحة ما قالوه لا يمكن القطع بأن خالق المعجزات هو الله سبحانه وتعالى بل لا يمتنع أن يكون فاعلها هو الكواكب [٣] .

---

(١) انظر الرازى: النبوات ص ١١٤ ،والأربعين جـ٢ ص١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) والفرق بين هذا السؤال وبين ما قبله أنه فى السؤال الأول: كانت الكواكب موجبة بالذات لهذه الآثار العجيبة بحسب الشرائط المختلفة ،والأشكال الفلكية المتعاقبة. أما فى هذا السؤال: فالأفلاك والكواكب أحياء ناطقة مختارة فى الفعل والترك .

(٣) انظر الرازي : النبوات ص ١١٥ ، ١١٦ ، الأربعين جـ ٢ ص ١٠٠ .

والجواب عن هذه الشبهة وسابقتها سبق في مبحث الطلسمات وسيأتى مزيد تفصيل للجواب في مبحث وحدانية المؤثر وفي كل تلك المباحث أكدنا على أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله وأن ما عداه لا يعدو أن يكون سببا مخلوقا له تعالى ،فهو تعالى خالق الأسباب والمسببات .

٧ ـ القول باحتمال كون المعجزة من أفعال العقول والنفوس:

يقول المنكرون إن الفلاسفة قد اتفقت على إثبات العقول والنفوس[١] فلم لا يجوز أن يكون فاعل هذه المعجزات هو هذه العقول والنفوس .

وجواب ذلك أن ما ذكره الفلاسفه من ذلك فلم يبرهنوا عليه وأما الزعم بأن هذه النفوس والعقول هى الملائكة فـزعم باطل لأن الملائكة التى أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون،وهم كثيرون ولـيسوا عشرة يقول تعالى ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ [٢]وهؤلاء يزعـمون أن الصـادر الأول هو العـقل الأول وعنه صدر كل مـا دونه،والعقل الفعال العاشر رب كل ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلك فساده بالاضطرار من دين الرسل،وبعض هؤلاء يزعمون أن هذا العـقل هو المذكور في حـديث يروى«إن أول ما خلق الله العـقل،فقـال أقبل فأقبل،فقال له:أدبر فأدبر،فقـال وعزتى ما خلقت خلقا أكرم علىّ منك،فبك آخذ وبك أعطى ولك الثواب وعليك العـقاب»ويسمونه أيضـا القلم لما روى«إن أول ما خلق الله القلم» [٣] .

والحديث الذى ذكروه في العـقل كذب موضوع عند أهل المعـرفة بالحديث، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستى،والدارقطنى،وابن الجوزى وغيرهم،وليس فى شىء من دواوين الحديث التى يعتمد عليها ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا حجة عليهم.فإن لفظه«أول مـا خلق الله تعالى العقـل قال له...» ويروى«لما خلق الله العـقل قال له...»[٤] فمـعنى الحديث أنه خـاطبه في أول أوقـات خلقه،ليس مـعناه أنه أول

---

(١) انظر ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٥٧٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ : والنجاة ص ٣٣٤ .
(٢) المدثر : ٣١ . (٣)رواه الترمذى فى سننه فى باب (١٧)من كتاب القدر،وأبو داود فى سننه فى باب(١٦) من كتاب السنة ،وأحمد فى مسنده جـ ٥ص ٣١٧ . (٤) أخرجة عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد الزهد،قال حدثنا علي بن مسلم حدثنا سيار حدثا جعفر حدثنا مالك بن دينار عن الحسن برفعه«لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر قال ما خلقت خلقا أحب إلي منك،بك آخذ وبك أعطي» وهذا مرسل جيد الإسناد وهو فى معجم الطبراني الأوسط موصول من حديث أبي أمامة ومن حديث أبي هريرة بإسنادين ضعيفين .

المخلوقات و«أول» منصوب على الظرفية كما في اللفظ الآخر«لما» وتمام الحديث «ما خلقت خلقا أكرم علىّ منك» فهذا يقتضى أنه خلق قبله غيره، وسبب غلطهم أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونان، فإن العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا. . . ويراد بالعقل الغريزة التى جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها، وأما أولئك فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل، وليس هذا مطابقا لغة الرسل والقرآن [1] .

ثم إنه إذا كانت نظرية الفيض قامت أصلا لتثبيت الوحدة في واجب الوجود وشيدت على أساس أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد والله واحد فوجب أن يصدر عنه بالتفكير فيض واحد هو العقل الأول إلا أنهم قالوا إنه صدر عن هذا العقل الأول الذى صدر عن الله بالفيض اثنان: عقل ثان وجسم الفلك الذى بعده. . بل إن ابن سينا جعل لهذا العقل ثلاثة فيوضات. عقل ونفس وجسم وهكذا لم يلتزموا بما قالوا ونقضوا قاعدتهم التى من أجلها اخترعوا نظرية الفيض فكيف يصدر عن هذا العقل الأول وهو واحد: اثنان أو ثلاثة مع أن القاعدة عندهم أن الوحد لا يصدر عنه إلا الواحد. وإذا جاز صدور الكثرة عن الواحد فلماذا لم يصدر عن واجب الوجود عندهم مثل ذلك ؟ .

وربما يقول الفلاسفة إن ثمة فرقا بين واجب الوجود وبين هذا العقل الأول الذى صدر عنه لأن واجب الوجود واحد من كل الجهات أما هذا العقل الصادر عنه فهو وإن كان واحداً في الوجود إلا أنه متعدد في الاعتبارات، والكثرة التى صدرت عنه إنما صدرت بحسب هذه الاعتبارات المتعددة .

إلا أنا نقول: إذا كان هذا العقل الأول الذى صدر عن واجب الوجود يحتوى على اعتبارات وجهات متعددة فقد صدر إذن عن هذا الواجب للوجود عندكم شىء يحتوى على كثرة وتعدد، وسيان بعد ذلك أن تكون كثرة في الوجود أو فى الاعتبارات، ومما يؤخذ على نظرية الفيض أيضا صدور الكائنات عن الله صدورا طبعيا ضروريا لا عن إرادة واختيار، وهذا ما يبطله الشرع ويرفضه العقل[2] وسيأتي مزيد تفصيل للرد على هذه الشبهه في مبحث وحدانية المؤثر.

---

(١) انظر ابن تيمية : الفرقان ص ٩٠ ، ٩٢ . .

(٢) انظر الفاوي : النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراه) ص ٤٨ ، ٤٩ .

والجواب عن كل ما سبق من شبهات حول مصدر المعجزة أن نقول :

إن المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية كما سبق بيانه والمعجزة المعنوية هي مجموعة القرائن التى تعود إلى حال الداعى وقيمة الدعوة والتى تولد العلم الضرورى بالصدق، ومتى تولد هذا العلم الضروري بطلت هذه الشبهات .

ثم إنه إذا كانت المعجزة نسبية في فهمها وإدراكها كما سيأتي بيانه، فإن هناك من يحتاج إلى النظر في اثبات الفاعل المختار الأوحد قبل النظر إلى المعجزة وهذا لا حديث لنا معه هنا في هذه الدراسة الخاصة بالمعجزة .

وهناك من يمكنه بالنظر إلى المعجزة الاستدلال بها على وجود الله تعالى الفاعل المختار الأوحد العادل الحكيم الرحيم لأن المعجزة التى هى فعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع وكمالاته كسائر الحوادث، بل هى أخص لأن الحوادث المعتادة ليست ذي الدلالة كالحوادث الغريبة إذ هى آيات جديدة فتعطى حقها .[1] .

فإذا ثبت هذا الوجود الإلهى الكامل بطل القول بوجود مؤثر آخر سواه سواء قيل إنه كوكب أو فلك أو عقل أو روح علوى أو سفلى. إلا ما كان سببا مخلوقا له تعالى فالفعل فعل الحق ولكن بواسطة المخلوق .

وهذا ما أكدنا عليه فيما سبق عند حديثنا عن الطلسمات فقلنا إن تأثير الملائكة بل والكواكب على فرض اعتبارها من الأسباب يعود في حقيقته إلى فعل الله تعالى وحده فهو خالق الأسباب والمسببات [2] .

وأكدنا عليه أيضا في مبحث التأويل فى تعليقنا العام على المبحث، ورددنا كل الأسباب الظاهرة إلى شيء واحد هو فعل الله تعالى [3] .

---

(١) انظر آخر الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٢) انظر الفصل الأول من الباب الثانى .

(٣) انظر الفصل الرابع من الباب الرابع .

وكذلك أكـدنا عليه عند حديثنا عن شـروط المعجزة واشـتراطنا أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه .

ثم إنا لو فرضنا شيئا آخر مـؤثراً لكانا إذا اجتمعنا على ذلك الممكن فإما أن يقع ذلك الممكن بهما فيجتمع على الأثر الواحد مؤثران مستقلان وهو محال .

وإما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محـال، لأن كل واحد لما كان مستقلا بالتأثير كان وقـوعه بأحدهما دون الآخر ترجيحـا لأحد طرفى الممكن على الآخر بلا مرجح وهو محال .

ثم إنه لما امتنع وقوعـه بواحد منهما لزم أن يقـال إنه لا يقع البتة أو إن وقع فقد وقع من غير مـؤثر وذلك محال. لأنه يلزم أن لا يدخل شيء من الممكنات في الوجود أو إن دخل في الوجود فإنه يحدث من غير مؤثر أصلا وكلاهما باطل .

فثبت أن جميع الممكنات واقع بقدرة الله تعالى.

والاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا .

فإن اقتـران الأسباب والمسببات لمـا سبق من تقدير الله سبحـانه بخلقها على التساوق لا لكونه ضروريا في نفسه غيـر قابل للتفاوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون جز الرقبـة، وإدامة الحياة مع جز الرقـبة، وهلمّ جرا، إلى جميع المقترنات .

ففاعل الاحتراق مثلاً هو الله تعالى إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطه، فأما النار وهى جماد فلا فعل لها .

وليس هناك شبـهة دليل على فعل النار إلا مـشاهدة حصول الاحـتراق عند ملاقاة النار والمشاهده تدل على الحصـول عندها ولا تدل على الحصول بها وأنه لا علة سواها .

لأن العلة أمر لا يرى ولا تتعلق به المعاينـة والمشاهدة حتى يصح تعيين العلة على أنها النار .

ويمثل لذلك الغزالى بأن الأكـمه، لو كانت في عينيه غـشاوة ولم يسمع من الناس الفرق بين الليل والنهار لو انكشـفت الغشاوة عن عينيه نهـارا وفتح أجفانه،

فرأى الألوان، ظن أن الإدراك الحاصل في عينيه لصور الألوان فاعله فتح البصر وأنه مهما كان بصره سليما ومفتوحا، والحجاب مرتفعا والشخص المقابل متلونا فيلزم لا محالة أن يبصره، ولا يعقل أنه لا يبصره حتى إذا غربت الشمس، علم أن نور الشمس هو السبب في انطباع الألوان في بصره .

ومن ثم يتبين لنا أن وراء الأسباب الظاهرة العلة الحقيقية إلا أنها ثابتة ليست تنعدم أو تغيب ولو انعدمت أو غابت لأدركنا التفرقة وفهمنا أن ثم سببا آخر وراء ما نشاهده من الأسباب الظاهره هو الله تعالى [1] .

ومن الطريف أن هذا الرأى الذى عارض به الغزالى رأي «الفارابى» و«ابن سينا» في السببية قد وجد له أنصارا في العصر الحديث، فردده وقال به فلاسفة لهم شأنهم في عالم الفكر، فأيدوا تلك النظرية التى تركز كل القوى والمؤثرات في العالم بأجمعه في شيء واحد هو قدرة الله يقول «مالبرانش» كما فى «المطالب والمذاهب» فى مبحث «الدين فى الأزمنة الأخيرة»: إنما نرى توالى الحادثات ولا نرى الرابطة التى تربط أحد الطرفين بالآخر، لكونها شيئا إلهيا لا يوجد مثله في المخلوقات وهذا عين ما قاله علماؤنا الأصوليون: لا تثبيت العلية بالدوران، ويقول أيضا في مبحث المعرفة من «المطالب والمذاهب»: ليست العلة الحقيقية إلا واحدة لأن الإله الحق واحد والقوة التى في الطبيعة وفي كل شيء عبارة عن إرادة الله، فالاعتراف مثلا بأن الشمس تعطى الحركة والحياة للأشياء يكون شركا، والقول باستطاعة الملائكة والمقربين لو اجتمعوا تحريك ورقة من أوراق شجرة يكون تناقضا وهذا عين ما ذهب إليه علماء أصول الدين من أهل السنة من أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد لا العباد أنفسهم مع كون الإنسان أولى بأفعاله من النار بفعل الإحراق [2] ويقول «هيوم» الذى هو أشهر مشاهير المنكرين للمعجزات: إذا أمعنا في النظر فنحن لا نرى القوانين والأسباب وإنما نرى الحادثات والنتائج، فنقول بالعلية والضرورة من غير أن نراهما. ويقول استوارت مل: إن الله الذى أوجد سلسلة

(١) انظر الغزالي: تهافت الفلاسفة ص ٢٢٧ ، ٢٣١ .

(٢) وفى الكتاب المقدس نجد نفس هذا المعني فالمعجزة عمل من أعمال الله ففي العهد الجديد «إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» لوقا الأصحاح (١١) آية (٢٠) وفى التوارة نجد أن كهنة فرعون الذين ناقشوا معجزات موسى عليه السلام اضطروا آخر الأمر إلى الاعتراف بأن «أصبع الله» هي التي تعمل بواسطته ـ انظر سفر الخروج الأصحاح (٨) آية (١٩) .

الأسباب والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة، فلا تكون المعجزة خارقة للعادة بهذا الاعتبار ولا يختل قانون السببية، فسبب المعجزة إرادة الله، ومراده من عدم كون المعجزة خارقة أنها غير مخلة بقانون السببية وهو الناحية المهمة للمسألة لوجود سببها الذي هو إرادة الله، وإلا فالمعجزة تخرق العادة بتعطيل عمل سلسلة الأسباب الطبعية.

وكلام الغزالي وغيره هنا لا يهدم العقل والعلم لأن مسائل العلم الطبعي مبنية على التجربة التي لا تدل على القطعية الضرورية وإن دلت على القطعية الواقعية ونظام الأسباب إنما اشترط ليكون نظاما ووسيلة يتوسل بها عباد الله في قضاء حاجاتهم أي ليكون شرطا بالنسبة إليهم لا بالنسبة إلى الفاعل يحتاجون إلى مراعاته ولا يحتاج هو إليها [1].

ومما يؤكد على أن السببية ليست ضرورة عقلية أنا نجد أن التسليم بمبدأ التعاقب عاماً في الحيوانات ايضاً.

(١) انظر مصطفى صبري: القول الفصل ص ٣٠، ٣٣.

obeikandl.com

الفصل الثالث

تواتر المحجزة

- تعريف التواتر
- شروط التواتر
- التواتر بين الإقرار والإنكار

obeikandl.com

ـ التواتر في اللغة: التتابع أو التتابع مع فترات، وتواترت الأشياء أي جاءت بعضها في إثر بعض وِتْراً وتِرْاً من غير أن تنقطع [1] .

ـ والتواتر في الاصطلاح عند المحدِّثين : ما أخبر به جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب[2] عن مثلهم من مبدئه إلى منتهاه أي يكون رواته في كل عصر من أعصاره على جهة يستحيل إجماعهم على الكذب .

ويكون مستند انتهائهم الحس، فإن لم يكن المخبر عنه شيئا محسوسا وكان طريق العلم به الاستدلال والنظر لم يوجب ذلك التواتر علما .

والناقلين وإن قصر عددهم عن عدد أهل التواتر وكانوا آحادا فإن كل واحد منهم لو أضاف ما نقله إلى حادثة معينة أكثر السامعين لخبره قد شهدها، فلم ينكروا ذلك لا عند سماعهم ولا بعد ذلك دل ذلك على صدق ما أضيف إليهم، وادعى عليهم وقام إمساكهم عن إنكار ذلك مقام نقلهم لمثل ما نقله الآحاد .

ولا يمكن بالطبع أن يكون السامعين أو كثير منهم قد أنكروا مشاهدة ما ادعاه الناقلون عليهم وسماعه، ولم ينقل ذلك الإنكار إلينا، لأن إنكار هذه الأعلام مما يجب توفر الدواعي على نقله وضبطه، ومعرفة عين المعترض فيه ولفظه حتى يشتهر ذلك ويظهر ويجرى مجرى الخبر الذى هو اعتراض عليه.

وقد زعم كثير من اليهود أن من شروط الخبر الموجب للعلم القاطع للعذر:

أن تكون الناقلة لا يحصرهم عدد، ولا يحويهم بلد، ولا يجوز على مثلهم التكاتب والتراسل وأن تتغاير آباؤهم وتختلف أنسابهم، وتتفرق دواعيهم وهممهم، وأغراضهم وأن تختلف مللهم ودياناتهم. وألا يحملوا على نقلهم بالسيف وألا يضموا إلى خبرهم ما تحيله العقول . وأن يكونوا في دار ذلة وممن تؤخذ منه الجزية.

وكلامهم هذا باطل لأنه لو نقل إلينا خبر عن مشاهدة أهل بلدة واحدة وبنو

---

(١) انظر عبد السلام هارون وآخرون : المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٥١ .

(٢) يقول الباقلاني :وهم أن يكونوا عددا يزيد على كل عدد أمرنا الله بالاستدلال على صدق المخبر به أى يزيدون على الأربعة لأن الشهادة في الإسلام لم تزد على أربعة شهود فى حالة الزنا. انظر الباقلاني :التمهيد ص ١٦٣ : ١٦٤ .

أب واحد وأهل دين واحد وإن لم يكونوا في دار ذلة، وممن يؤدي الجزية، وهم أهل تواتر، لوجب العلم بصدقهم وصحة نقلهم وكذلك لو كانت حرفتهم واحدة .

وأما اشتراط ألا يضموا إلى خبرهم ما تحيله العقول فإنه باطل: لأن أهل التواتر لا يجوز وقوع الكذب منهم ونقل ما تحيله العقول كذب لا محالة، ولو جاز عليهم ذلك لبطل العلم بخبرهم [1] .

وقد طعن قوم في التواتر وذكروا في ذلك عدة شبهات فقالوا: إن اليهود على كثرتهم وتفرقهم في مشارق الأرض ومغاربها يخبرون عن موسى عليه السلام أنه قال: إن شريعتى باقية وإنها لا تصير منسوخة البتة، ففى التوراة «ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعيدونه عيداً للرب في أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية» [2] وفيها كذلك «احفظ واسمع جميع هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها لكى يكون لك ولأولادك من بعدك خير إلى الأبد إذا عملت الصالح والحق فى عينى الرب إلهك» [3] .

فهذا الخبر، إما أن يكون صدقا أو كذبا فإن كان صدقا فقد بطلت شريعتكم. وإن كان كذبا فقد صار هذا التواتر باطلا .

وللجواب عن ذلك نقول :

١ ـ قد أنكرت العنانية من اليهود تواتر ذلك وقالوا: «إن نسخ الشريعة جائز من جهتى العقل والشرع، وإن من جاء بعد موسى من الأنبياء فإنما أنكرنا نبوتهم لما عدموا الأعلام المعجزة لا غير، ولو كان متواترا لعلموه» (٤) .

٢ ـ ويحتمل أن يكون المعنى من قوله «فريضة أبدية» في النص السابق من التوراة أي فريضة أبدية ما لم تظهر المعجزات على يد داع يدعو إلى خلافها وتبديلها، لأنه قد قيد في العقل وجوب تصديق من ظهرت الأعلام على يده كما أنه قد قيد في العقل وجوب سقوط فرض العمل بالشريعة مع الموت والعجز .

٣ ـ وإن صح ماذكره اليهود من القول بعدم نسخ شريعتهم لم يجز أن يظهر

---

(١) انظر الباقلاني : التمهيد ص ١١٥ : ١١٨، ١٣٥ : ١٣٩، ١٦٣ : ١٦٤ ، الرازي : الأربعين جـ ٢ ص ٨٠ : ٨١ ، البغدادي : أصول الدين ص ٢٠ ، ٢٢ .

(٢) سفر الخروج الأصحاح (١٢) آية (١٤) . (٣) سفر التثنية الأصحاح (١٢) آية (٢٨) .

(٤) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٨٠ .

الله المعجزات على يد من يدعو إلى نسخها وتبديلها وإلا فقدت المعجزة دلالتها على صدق دعوى النبوة فيقدح ذلك في نبوة موسى عليه السلام نفسه .

٤ ـ وموسى عليه السلام قرن خبره الذى تدعيه اليهود عليه بالأمر بتصديق الرسل بعده وقد صدق اليهود يوشع وحزقيل واليسع، وداود وسليمان، وصدقت العيسوية منهم بنبوة أبي عيسى الأصبهانى، واليهود ينتظرون رسلا إلى وقتنا هذا، ففى سفر التثنية: «يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون» (١) .

٥ ـ وأما قوله في سفر التثنية :«احفظ واسمع جميع هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها لكى يكون لك ولأولادك من بعدك خير إلى الأبد إذا عملت الصالح والحق في عينى الرب إلهك» (٢) .

فالأبد هنا وصف للخير الذى يكون لليهودى ولأولاده إن حفظ وسمع جميع هذه الكلمات التى أوصى الله بها وليس وصفا لشريعة لا تنسخ. والإنسان قد يقول مثل هذا ثم ينسخ العمل ويديم الجزاء .

٦ ـ ولفظ«الأبد» في لغة التوراة لا يعنى زمانا بلا نهاية وإنما يعنى زمانا طويلا إلى مدة، وعلى سبيل المثال، فقد جاء في سفر التثنية«لا يدخل عمونى ولا مؤابى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد» (٣) فقد حدد نهاية الجيل العاشر بلفظ «الأبد» أي أن الأبد محدد بمدة، وكذلك شريعة موسى محددة بمدة .

٧ ـ وموسى عليه السلام عبرانى اللسان ولا شك أن كثرة التفاسير والترجمة لكلامه من لغه إلى لغة تدخل التحريف على كلامه، فلم تجب الضرورة بصحة ما نقلوه وفسروه .

٨ ـ والمسلمون لا يطعنون في تواتر التوراة المتداولة فهم يعرفون أنها من كتابة «عزرا في مدينة بابل، وتواترت من بعد عزرا، وإنما يستدلون من نصوص

(١) سفر التثنية : الأصحاح (١٨) آية (١٥) .
(٢) السابق الأصحاح (١٢) آية (٢٨) .
(٣) السابق : الأصحاح (٢٣) آية (٣) ولنا فى ذلك وقفة متأنية فى دراسة مستقلة بعنوان «ختم النبوة بين العقل والنص» (تحت الطبع) .

التوارة التى كتبها عزرا: على أن التوراة التى بيد اليهود والنصارى اليوم، وهى التى كتبها عزرا كتبت من بعد موت موسى بزمان طويل، وهذا يعنى أن تحريفات كثيرة حدثت في التوراة الأصلية. ففى التوراة المعاصرة: «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» (١) .

ففي هذا النص الدليل على أن موسى لم يقل هذا كلام لأنه مات قبل كتابته بزمن طويل يكفى لضياع الشريعة كما كان كافيا لأن لا يعرف أحد مكان قبره عند كتابة ذلك النص من التوراة .

ولو كانت التوراة المتداولة هى الأصلية لكانت واحدة مع جميع فرق اليهود، وما بين التوراة السامرية والعبرانية من خلاف لا يخفى مثله على العاقل، وكذا النسخة المعروفة«بالسبعينية» التى اتفق عليها سبعون حبراً من أحبارهم وهى التى في أيدى النصارى .

ومعلوم تاريخيا أن«بخت نصر» قتلهم بالكلية ولم يبق إلا عددا قليلا يمكن إطباقهم على الكذب، وبذا تخرج روايتهم عن حد التواتر .

«والتوراة إنما كانت طول مدة ملك بنى إسرائيل عند«الكوهن الأكبر» الهارونى وحده لا ينكر ذلك منهم إلا كذاب مجاهر» (٢) فأمكن تبديلها .

وقال الطاعنون في التواتر أيضا: أهل التواتر يجوز الكذب على كل واحد منهم، فكذا الكل إذ ليس كذب الكل إلا كذب كل واحد .

وجواب ذلك : أنه لا يمكن مساواة حكم الكل لحكم كل واحد أبداً، فالكل مثلا له القدرة على تحريك ما لا يقوى عليه كل واحد منفردا .

ثم إن العادة لم تجر باجتماع مثل عدد أهل التواتر على نقل كذب عن مشاهدة ولا عن كتمان ما هم عالمون به من غير ظهور الحديث به بينهم والإقرار إذا خلوا بأنهم كتموا وكذبوا لعلة دعتهم إلى ذلك، لأنه لا يجوز أن يستمر بهم

---

(١) السابق :الأصحاح (٣٤) آية (٥ ، ٦) .

(٢) ابن حزم : الفصل جـ ١ ص١٩٧ .

ترك ذلك والخوض فيه والحديث به زمانا طويلا أو الأبد حتى لا يعلم ذلك، وإن جاز ذلك على الواحد والاثنين منهم، كما أنه لم تجر العادة باجتماع أهل التواتر على تشويه وجوههم وطلاق نسائهم وسفرهم إلى بلد واحد لما جعلهم الله عليه من تفرق الدواعي واختلاف الأغراض، وإن جاز ذلك على آحادهم .

وقال الطاعنون في التواتر أيضاً: إن حكم كل طبقة حكم ما قبلها بواحد، فإن من جوز إفادة المائة للعلم أجاز إفادة التسعة والتسعين له قطعا، ولم يحصره في عدد، وادعاء الفرق تحكم، فلنفرض طبقة لا تفيده ثم نزيد عليها واحدا واحدا، فلا يفيد بالغا ما بلغ .

وجواب ذلك : أن حصول العلم عند خبر التواتر يختلف بالوقائع والمخبرين والسامعين، ثم إن العشرة لها القدرة على تحريك ما لا تستطيعة التسعة .

وقال الطاعنون في التواتر أيضاً :لو أوجب التواتر العلم لأوجبه خبر الواحد لأن التواتر يحصل بخبر الواحد بعد الواحد فالموجب له هو الخبر الأخير.

وجواب ذلك أن الخبر الأول يفيد ظنا. ويقوى بالثانى والثالث إلى ما لا أقوى منه. فيلزم أن الموجب له هو الخبر الأخير بشرط سبق أمثاله كتحريك العشرة مثلا للجسم الثقيل فقد لا يتم إلا عند وجود العاشر ولكن بشرط سبق التسعة .

وقال الطاعنون كذلك: إن العلم بصفة الشيء مشروط بالعلم بذات الشيء ومن ثم فما لم نعلم عدد الطبقات التى بيننا وبين الطبقة الذين شاهدوا الخبر المتواتر كانت ذواتها مجهولة لنا، ولا يمكننا الحكم على هذه الطبقات بأنها موصوفة بالصفات المعتبرة فى التواتر .

وقال بعضهم: الخبر المتواتر إذا كان خبراً عن الأمور الماضية حصل فيه احتمال مانع من القطع واليقين، وذلك الاحتمال هو أن يقال لعل واحداً ألقى ذلك الكذب على سبيل الإرجاف ثم إنه انتشر ذلك الإرجاف واشتهر قليلا قليلا حتى امتلأ العالم منه، ونحن نشاهد أن مثل هذا الإرجاف كثيرا ما يحصل في زماننا، فإذا جاز ذلك في هذا الزمان، ونحن نشاهده فكذا في سائر الأمنة .

ـ والجواب عن كل ذلك أن نقول :

إنه لما كان العلم الحاصل عن خبر التواتر علما ضروريا كانت هذه الشبهات

طاعنة في الضروريات، فلم تكن مستحقة للجواب، لأن ذلك الجواب لا محالة يكون نظريا فيتوقف الضرورى عليه فيقع الدور وهو محال .

ثم إن من ينكر خبر التواتر يلزمه أن لا يصدق بوجود كل ما لم يشاهد حسه مما غاب عنه وبعد في المكان أو كان وجوده سابقا له في الزمان، وبالطبع فإن ذلك لا يجوزه أي عقل .

فمن أقر بذلك مع إنكاره للتواتر في حالة معجزات الأنبياء مدعيا أن الفرق أنه لا ينكر أحد هذه الأمور، وكثير من الناس ينكرون أعلام الأنبياء .

قيل له: إن كثيرا من الناس لا يعرفون كثيرا مما صح عندك من الأخبار العارضة لمن كان في بلادك، فليس جهلهم بها ودفعهم لها لو حدثوا بها مخرجا لها عن الصحة، وكذلك جحد من جحد أعلام الأنبياء ليس مخرجا لها عن الوجوب والصحة .

والأمر كما يقول الغزالى[1]: «فإن قال قائل: إن هذه الأمور لم تتواتر عندى لا جملتها ولا آحادها، فيقال له: ينبغى عليك أن تخالط القوم الذين تواتر ذلك بينهم حتى يتواتر ذلك إليك فإن الأصم لا تتواتر عنده الأخبار، وكذا المتصامم، فهذا أيضا عذرنا عند إنكار واحد منهم التواتر على هذا الوجه » .

فإن قال: إنه ليس نجد الناس على الكذب فيما كان قبلنا من الأخبار ما نجدهم على الكذب في أعلام النبوة .

قيل له : بل الأمران سواء لا فرق بينهما .

فالأنبياء والملوك جميعا لابد وأن يكون لكل منهم أولياء يدافعون عنهم وأعداء يحاربونهم وبالرغم من ذلك لم يستطيع أحد أن يخدع التاريخ [2] .

وهناك من يسلمون بحجية التواتر، ولكنهم يطعنون في تواتر أعلام نبى ما قائلين: إن آحاد هذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر .

---

(١) الغزالي: الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣١ .

(٢) انظر تفصيلات ما سبق من الطعون وردودها : الباقلاني: التمهيد ص ١٤٠: ١٤٤ ـ ١٦٢ : ١٦٣ . الإيجي: المواقف ص ٣٤٧: ٣٤٨ .
الرازي: الأربعين جـ٢ ص٨٣: ٨٧ . ابن حزم: الفصل جـ١ ص١٤٣: ١٤٤ .

ونقول لهؤلاء إن التواتر ضربان: تواتر من جهة اللفظ كالأخبار المتفقة عن القرون الماضية والبلاد النائية وتواتر من طريق المعنى كالأخبار المختلفة عن سخاء حاتم وشجاعة على رضى الله عنه وما أشبه ذلك .

فآحاد هذه الوقائع وإن لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر لكن مجموعها قد يفيد العلم باختصاصه بخوارق العادات .

obeikandl.com

الفصـــل الرابـــع

القول بتأويل المعجـــزة

- التأويل الرمزى
- التأويل الطبعى
- تعليق عام

obeikandl.com

ـ التأويل الرمزي :

وهو اتجاه مقبول طالما بعد عن التكلف والتعسف في التأويل وطالما لم يخالف ظاهر الشرع وطالما لم يجزم أن ذلك التأويل الرمزى هو مراد الله تعالى، فهذا ليس من حق أحد عدا من أنزل عليه الكتاب لبيانه وطالما أنه لم ينكر الواقعة الحسية المتواترة .

ومما يؤكد صحة هذا الاتجاه ما ورد في شأن القرآن الكريم من أن له ظاهرا وباطنا .

فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس، قال: القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضى عجائبه، ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى أخبار وأمثال، وحلال وحرام. ، ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء. وقال ابن مسعود: من أراد علم الأو والآخرين فليتل القرآن ، ومن المعلوم أن هذا لا يحصل بمجرد التفسير الظاهر. وروى عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «لكل آية ظهر وبطن. . . » قال ابن النقيب إن ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وباطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق [1] وفي رواية : «إن للقرآن ظهرا وبطنا»[2] .

وفكرة الظاهر والباطن هذه نجدها أيضا في قوله تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ [3] .

ويشهد لها قوله تعالى: ﴿وتفصيلا لكل شىء﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شىء﴾ [5] .

---

(١) انظر الألوسي : روح المعاني جـ ١ ص ٧ .

(٢) وهذا الحديث مع اختلافات فى رواياته. كما يقرر صاحب مجمع الزوائد بقد رواه البزار وأبو يعلى فى الكبير والطبراني فى الأوسط، كما يقرر السيوطي فى الجامع الكبير أن هذا الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه، والطبراني فى الكبير، وابن جرير فى تهذيب الآثار وفى التفسير، وقد حكم السيوطى على هذا الحديث فى الجامع الصغير بأنه حديث حسن، وابن عربي فى الفتوحات يروى إجماع أهل الكشف على صحة هذا الحديث .

(٣) آل عمران: ٧ .

(٤) الأنعام : ١٥٤ .

(٥) الأنعام : ٣٨ .

ثم إنه كيف يقال باحتمال ديوان المتنبى وأبياته المعانى الكثيرة ولا يقال باشتمال قرآن النبى ـ ﷺ ـ وآياته، وهو كلام رب العالمين المنزل على خاتم المرسلين على ما شاء الله تعالى من المعانى، والله تعالى يقول:[1] ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ ومن ثم يكون القرآن صالحا لكل زمان ومكان .

ومما يؤكد صحة هذا الاتجاه روايته عن الصحابة رضوان الله عليهم فيقول ابن عباس فى قوله تعالى ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾[2]: «الماء العلم والأودية القلوب»[3] .

وكثير ممن قالوا بالتأويل الرمزى للمعجزة لم ينكروا الواقعة الحسية ودلالاتها المتعددة وإن جعلوا منها الدلالة الرمزية، ومن ثم فتأويلهم مقبول ما تحققت الشروط الأربعة السابقة في التأويل .

يقول الكرمانى مؤولا: ﴿و قال إبراهيم ربى أرنى كيف تحى الموتى﴾[4] «يقول أرنى كيفية إحياء الأنفس الحسية الميتة عن الحقائق ونقلها عن رتبتها وطبيعتها إلى رتبة الملائكة فتحى الحياة الأبدية . . . الخ »[5] .

ويقول مثبتا: [6] «إن المعجز الذى هو فعل المبعوث لا يتمكن أحد من إصدار مثله إلى الوجود إلا بنور إلهى من دار القدس» .

ويقول القاضى النعمان في كتابه أساس التأويل: «فلا يتوهم السامع . . أنا متى ذكرنا تأويل شيء من الباطن أبطلنا من أجله الظاهر، نعوذ بالله من ذلك» .

وكذلك الحال عند معظم الصوفية، يقول الألوسي: «وأما كلام السادة الصوفية في القرآن، فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان، لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا، وإنما المراد الباطن فقط إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفى الشريعة بالكلية، وحاشى سادتنا من

---

(١) لقمان :٢٧ . (٢) الرعد : ١٧ .
(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٥ ص ٤٥ .
(٤) البقرة :٢٦٠ . (٥) الكرماني : راحة العقل ص ٥٤٢ .
٦١ السابق : ص ٥٧٠ .

ذلك كيف وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا لابد منه أولا إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن قبل إحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب[1] .

فابن عربي مثلا يرى أن عصا موسى صورة ورمز لعصيان فرعون وامتناءه عن أن يجيب دعوة موسى أما انقلابها «حية» فهو أيضا رمز لانقلاب عصيان فرعون طاعة والحية من الحياة، والحياة هنا حياة العلم والعرفان وقلب معصية فرعون طاعة أي أورد اسم المعصية على فرعون من وجه واسم الطاعه عليه من وجه آخر، وهو لم يتغير، وكذلك قلب عصا موسى حية في اللسان الرمزى، أي سماها عصا في صورة وحية في صورة أخرى، وجوهرها واحد لم يتغير إلا في الحكم وخلاصة القول أن فرعون لم يعص موسى إلا في الصورة بل لم يكن عصيانه إلا عين الطاعة، لأن العصيان والطاعة مظهران لحقيقة واحدة ، كما أن عصا موسى وحيته لم يكونا إلا مظهرين وصورتين لجوهر واحد، فلم يختلف عصيان فرعون عن الطاعة الحقيقية إلا بمقدار ما اختلفت عصا موسى عن الحية التى تحولت تلك العصا إليها، والحقيقة أنه ليس هناك تحول ولا انقلاب وإنما هو تغير في الصور[2] .

ففرعون «لم يفعل ما فعل. . . . إلا تلبية للأمر الإلهى التكوينى الذى يخضع له كل ما فى الوجود، وإن خالف بمعصيته الأمر التكليفى، فهى طاعة في صورة معصية»[3] .

ومما سبق من كلام ابن عربى يتبين لنا أن ابن عربى هنا جعل لعصا موسى معنى رمزيا إلا أنه لم ينكر وجودها الحسى بل إن هذا المعنى الرمزى مبنى في أساسه على التسليم بوجود الظاهر« فلم يختلف عصيان فرعون عن الطاعة الحقيقية إلا بمقدار ما اختلفت عصا موسى عن الحية التى تحولت تلك العصا إليها» .

ويؤكد ابن عربى على ذلك الوجود الحسى للمعجزات بالرغم من تأويلة الرمزى لها فيقول:[4] «فإنا رأينا عصا موسى عليه السلام حية وعصى السحرة حيات، ولم تفرق العامة بين الحيات » .

---

(١) الألوسي : روح المعاني جـ١ ص ٧ . وانظر الغزالي: إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٩٣ .
(٢) انظر أبوالعلا عفيفى : التعليقات على فصوص الحكم لابن عربي جـ٢ ص٣١٢ .
(٣) السابق جـ٢ ص ٢٩٩ . (٤) ابن عربي : الفتوحات المكية جـ ٢ ص٣٧٤ .

بل إن ابن عربي نفسه إذا ما وجد أن التأويل الرمزي ينفى الوجود الحسى للمعجزة، نجده من أول المدافعين عن ذلك الوجود الحسى للمعجزة [1] .

وبذلك نرى اتفاق كثير ممن قالوا بالتأويل الرمزى في احترام الظاهر وعدم سقوطه فى أي حال من الأحوال .

نعم هناك الغلاة الذين قالوا بسقوط الظاهر ولكن نقول: إن الغلاة لا تخلو فرقة إسلامية منهم ومن التجنى اعتبارهم ممثلين لفرقهم .

ونرى كذلك مما سبق أن أوردناه من نماذج للتأويل الرمزى أنها وإن لم تنكر الواقعة الحسية إلا أنها لا تخلو من التعسف في التأويل، وإن اختلفت درجة هذا التعسف من موضع لآخر. هذا بالإضافة إلى ما في تأويل ابن عربى من الجزم والقطع به. حيث أنه يصرح أنه لا يكتب إلا ما ينزل عليه من الله تعالى [2] وهذا ما نرفضه .

وكذلك تأويل محمد رشيد رضا لقوله تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[3] بأن المراد من انشقاق القمر ظهور الحق قياسا على انشقاق الصبح أي طلوعه، فهو تأويل مرفوض أيضا لأنه يخالف اللغة التى نزل بها القرآن، فليس في

---

(١) ويتبين ذلك مما يرويه لنا فى الفتوحات من موقف شاهده بنفسه يثبت أن للمعجزات وجودا حقيقياً. يقول ابن عربي: «اتفق لنا فى مجلس حضرنا فيه.. وقد حضر عندنا شخص فيلسوف ينكر النبوة على الحد الذي يثبتها المسلمون وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد... وكان زمان البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل نارا فقال المنكر المكذب إن العامة تقول إن إبراهيم عليه السلام ألقي فى النار فلم تحرقه، والنار محرقة بطبعها الجسوم القابلة للإحراق، وإنما كانت النار المذكورة فى القرآن فى قصة الخليل عبارة عن غضب نمرود عليه، وحنقه، فهي نار الغضب، وكونه ألقي فيها لأن الغضب كان عليه، وكونها لم تحرقه أى لم يؤثر فيه غضب الجبار لما ظهر به عليه من الحجة بما أقامه من الأدلة فيما ذكر من أفول الأنوار وأنها لو كانت آلهة ما أفلت، فركب له من ذلك دليلا، فلما فرغ من قوله قال له بعض الحاضرين ممن كان له هذا المقام... فإن أريتك أنا صدق ما قاله الله تعالى فى النار أنها لم تحرق إبراهيم، وأن الله جعلها عليه كما قال برداً وسلاماً، وأنا أقوم لك فى هذا المقام مقام إبراهيم عليه السلام فى الذب عنه لا أن ذلك كرامة فى حقي، فقال المنكر هذا لا يكون، فقال له: أليست هذه هي النار المحرقة. قال نعم قال تراها فى نفسك ثم ألقى النار التي فى المنقل فى حجر المنكر، وبقيت على لهابه مدة يقلبها المنكر بيده، فلما رآها ما تحرقه تعجب ثم ردها إلى المنقل، ثم قال قرب يدك أيضا منها، فقرب يده فأحرقته، فقال له هكذا كان الأمر، وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك والله تعالى الفاعل لما يشاء، فأسلم ذلك المنكر واعترف » السابق جـ ١ ص ٣٧١ .

(٢) انظر : ابن عربي : فصوص الحكم جـ ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) القمر : ١

اللغة انشق القمر بمعنى طلع لأن انشقاق القمر عند طلوعه غير معقول كمعقولية انشقاق الفجر عند طلوعه [1] .

ثم كيف يكون هذا التفسير صحيحا وهو يخالف سياق النص القرآني فالآية التالية للآية السابقة تنص على أن الانشقاق كان آية له ـ ﷺ ـ وهي ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾[2] ولو لم يكن القمر قد انشق لأسرع الناس بتكذيبه ﷺ .

ومن ثم فهذا التأويل مرفوض لأنه يخالف اللغة التي نزل بها القرآن ويخالف التواتر المتفق عليه، فحديث انشقاق القمر اخرجه «أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن منذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقي عن علي وابن مسعود وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس، ولذا قال ابن عبد البر: روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة» [3] .

وكذلك فنحن نرفض تأويلات الشيعة الإثنا عشرية لأنهم جزموا بمراد الله في تفسيراتهم حيث جعلوا الأئمة من آل البيت مفوضون من جهة الله تعالى في بيان أحكامه [4] .

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٣٨ . (٢) القمر : ٢ .

(٣) مصطفى صبري: القول الفصل ص ١٣٩ . وقد كانت هذه الآية محلا لمطاعن كثيرة من أهمها: أنها لو وقعت لسجلها تاريخ الأمم الأخرى . وجواب ذلك : أن هذا هو ماحدث بالفعل فقد سجلتها كتب بعض مؤرخي الهند وأرخت بها لبناء بعض الأبنية في الهند ففي المقالة الحادية عشر من تاريخ فرشته أن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضاً وقد نقل الحافظ المرى عن ابن تيميه أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناء قديما مكتوبا عليه بنى ليلة انشق القمر. ثم إن انشقاق القمر لم يكن أحد من أمم أهل الأرض يترصده وينتظره وكان في ليل وفي زمان البرد ولفترة وجيزة، فقلما يراه أحد ثم إنه قد يحول بين الرائي والقمر في بعض الأماكن سحاب كثيف فلا يرى هذه المعجزة ، هذا بالإضافة إلى اختلاف مطالع القمر، فهو لا يرى لكل أهل الدنيا مرة واحدة. ومن ثم فإنه من المتوقع ألا يكون رآه إلا عدد محدود من أهل الأرض متفرقين في بلدان شتى ربما حمل معظم المؤرخين روايتهم على تخطئة الأبصار أو على نوع من الكسوف . انظر القاضي عبد الجبار: المغني جـ ١٦ ص ٤١٩ القرطبي الإعلام ص ٣٤٨ ، ٣٥٠ .
رحمة الله الهندي : إظهار الحق جـ٢ ص ١٦٦ .

(٤) انظر محمد محمد إبراهيم العسال : الشيعة الاثنا عشرية ومنهجهم في تفسير القرآن رسالة (دكتوراه) ص ٩٨

ونرفض تأويلاتهم كذلك لأنها لا علاقة لها باللغة التى نزل بها القرآن، ولأنها تخالف الشرع، حيث جعلوا القرآن يدور في فلك الولاية والإمامة التى يدعونها للأئمة من آل البيت فالقرآن بل وكل الكتب السماوية نزلت فيهم وفي توجيه أنظار الخلق إليهم، بل ما من آية مدح إلا فيهم وفى أوليائهم نزلت وما من آية قدح إلا في مخالفيهم وفى أعدائهم وردت فالآيات والبينات هم الأئمة من آل البيت، بل إن الشيعة الإثنى عشرية تفسر الإله بالإمام، ولفظ الجلاله الله بالإمام الحق، وتفسير الجبت والطاغوت بأبى بكر وعمر وعثمان [1] رضى الله عنهما .

ـ التأويل الطبعى :

يحاول بعض الفلاسفة والمفكرين تأويل المعجزة بردها إلى قوانين العلم والطبيعة وذلك من منطلق أن مبدأ العلم يقوم على حتمية خضوع الطبيعة لبعض القوانين على العلم أن يكتشفها ليتمكن بالتأثير في العلل من تكرار الحوادث كلما أراد، وما لم يتمكن العلم من تفسير حادثة معينة فلا يسعه إلا الاعتراف بجهله ومواصله البحث. ومن ثم فإنه في نظر العلم لا وجود للمعجزة وليس هناك سوى حادثة بارزة للعيان .

وهؤلاء المؤولون منهم من يرى أن المعجزة بل و النبوة هى نتاج طبعى للتطور كابن خلدون .

يقول ابن خلدون : [2] إن«هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض. . . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده. . وللنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية. . وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل. . ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه» .

وينقل الرازى عن منكرى النبوات أنهم يرون أن الإتيان بالمعجزات أمر طبعى

---

(١) السابق ص ١٩٨ ، ٢١٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٥ ، ٩٦ .

يعود إلى اختلاف الناس في النفوس وفى الأمزجة، فنحن بين أمرين: إما أن نثبت النفس الناطقة البشرية، وإما أن لا نثبتها، فإن أثبتنا النفس الناطقة، فقد يقال: إن نفس النبى عليه السلام مخالفة لسائر النفوس بالماهية والحقيقة، فهى لماهيتها المخصوصة وحقيقتها التى باعتبارها امتازت عن سائر الحقائق، قدرت على ما لا يقدر عليه غيرها، وأما إن قلنا: إن القول بالنفوس الناطقة باطل فلابد أن نعترف أن لكل واحد من أشخاص الناس مزاجاً مخصوصا، وتركيبا مخصوصا به امتاز عن سائر الأشخاص .

ومن ثم فإنه قد يقال: ما به امتاز هذا الشخص عن سائر الأشخاص علة لكونه قادرا على الأفعال التى يعجز عنها غيره. وعلى هذا التقدير لا يمكننا أن نعلم أن هذا المعجز هو فعل الله تعالى [1] .

ويرى الفارابى أن«النبوة مختصة في روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر، فتأتي بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادة ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ»[2] .

وابن سينا والغزالى وغيرهما من الفلاسفة كثيرون يرون أن للنبوة ثلاث خواص: «أحدهما تابعة لقوة التخيل والعقل العملى. والثانية تابعة لقوة العقل النظرى والثالثة تابعة لقوة النفس» [3] .

ويرون أن لذلك أسبابا معلومة في مذاهب الطبيعة. يقول ابن سينا عن الخاصية الأول: [4] «وإذا بلغك أن عارفا حدث عن غيب فأصاب متقدما ببشرى أو نذير فصدق ولا يتعسرن عليك الإيمان به، فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسبابا معلومة» .

ويؤكد ابن سينا ذلك بأن التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الإنسانة أن تنال من الغيب نيلا ما في حالة المنام، فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل في حال اليقظة إلا مانعا يمكن أن يزول ويرتفع كالاشتغال بالمحسوسات .

---

(١) انظر الرازي: الأربعين جـ٢ ص٩٨ . والنبوات ص ١٠٥ ، ١٠٧ .
(٢) الفارابي : فصوص الحكم ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣) الغزالي : معارج القدس ص ١٥١ . وانظر ابن سينا:رسالة فى الفعل والانفعال ص٣، ٥.
(٤) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٦١ .

ـ أما التجربة :ـ فالتسامع ـ :وهو حصول الاطلاع على الغيب للغير ـ والتعارف : وهو حصول ذلك الاطلاع للناظر نفسه فيشهدان به، وليس أحد من الناس إلا وقد جرب ذلك بنفسه تجارب ألهمته التصديق، إلا أن يكون أحدهم فاسد المزاج نائم قوى التخيل والتذكر .

ـ وأما القياس الدال على إمكان اطلاع الإنسان على الغيب حالتى نومه ويقظته فمبنى على مقدمتين :

إحداهما :أن صور الجزئيات مرتسمة في المبادئ العالية قبل كونها [١] .

الثانية : أن للنفس الإنسانية أن ترتسم بما هو مرتسم فيها بحسب الاستعداد وزوال الحائل [٢] .

لأن الأنفس الإنسانية عندهم من جوهر العقول المفارقة وليست من مادة هذا الجسم الذى تديره.

يقول الفارابى[٣] «إن الروح التى لك من جواهر عالم الأمر»ومن ثم فلها القدرة على الاطلاع والتأثير شأنها في ذلك شأن العقول التى هي من جوهرها [٤] .

وتختلف استعدادات النفوس لقبول هذه المدركات الغيبية. فالقوة المتخيلة موضوعة بين قوتين تحولان دون عملها هما الحس والعقل فالحس يورد عليها صورا محسوسة تشغلها عن عملها، والعقل يصرفها عن كل ما لا تورده الحواس عليها.

فإذا ضعفت إحدى هاتين القوتين لم تتمكن القوة الأخرى من ممانعة المتخيلة عن عملها، كما هو مشاهد في حالة النوم وركود الحواس أو في حالة الجنون وضعف العقل.

ومن ثم فإن إخبار المجانين بالغيب فإنما يتفق أكثر ذلك لهم عند أحوال كالصرع والغشى حين تركد قواهم الحسية مع ضعف عقولهم فتقوى القوة المتخيلة

---

(١) انظر مبحث الطلسمات فى الفصل الأول من الباب الثانى. (٢) انظر ابن سينا :الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي عليه ص ٨٦١ ، ٨٦٦ . (٣) الفارابي : فصوص الحكم ص ٩ .

(٤) يلاحظ مدى التشابه بين هذا الدليل وبين نظرية المثل الأفلاطونية التي ترى أن نفوسنا كانت ذات حياة فى العالم العقلى،وذات اطلاع على الحقائق،ولما أجبرت على النزول،أصبحت دائمة الحنين إلى عالمها الأول،ولذا فإنها لا تكاد ترى فرصةتتيح لها الاتصال بعالمها العقلى حتى تنتهزها كما يحدث للنائم والمريض ولكن التحرر النهائي لا يكون إلا بعد الموت .

على إدراك الغيب .

ومن ثم فإن بعض المتنبئين قد يستعينون ببعض الأشياء التى تحدث للحس حيرة وركودا، فتقوى القوة المتخيلة على عملها وقد وجه الوهم إلى غرض معين فيتخصص بذلك قبوله كتأمل شيء شفاف مرعش للبصر برجرجته وبريقه .

ومراتب النفوس في قبول هذه المدركات الغيبية كثيرة جداً فبعض النفوس لا يكون فيه هذا الاستعداد أصلا، وبعض آخر يكون هذا الاستعداد فيه ضعيفا، وبعضها يكون هذا الاستعداد فيه قويا فتدرك طرفا من عالم الغيب - في النوم - إلا أنها لا تستطيع أن تستثبته كما هو. فالقوة المتخيلة بغريزتها تترك ما أخذت وتورد شبيهه أو ضده أو مناسبه، كما هو الحال عند اليقظان من أنه قد يشاهد شيئا فينعطف عليه التخيل إلى أشياء أخرى مما يتصل به حتى ينسى الشيء الأول إلى أن يقوم بالتحليل العكسى فيأخذ الحاضر مما قد تأدى إليه الخيال فينظر أنه خطر في الخيال تابعا لأي صورة تقدمته وتلك لأي صورة أخرى تقدمتها وكذلك إلى أن ينتهى إلى البدء ويتذكر ما نسيه مما شاهده من عالم الغيب .

وبعض النفوس يكون هذا الاستعداد فيه أقوى فتستثبت ما نالته من عالم الغيب من غير أنه يغلبه الخيال وينتقل إلى غيره، فتكون الرؤيا التى لا تحتاج إلى تعبير .

بل إن هناك نفوسا بلغت من قوة استعدادها لقبول المدركات الغيبية أنها تتمكن من ذلك في اليقظة أيضا .

وهذه النفوس أيضا منها ما لا يستطيع أن يستثبت ما يناله من عالم الغيب وتفعل المتخيلة فيه مثلما تفعل في حالة الرؤيا المحتاجة إلى تعبير .

ومنها ما يستطيع أن يستثبت ذلك دون أن يغلبه الخيال، كقول الرسول - ﷺ «إن روح القدس نفث في روعى كذا وكذا» .

ومنها ما يستطيع أن يستثبت ذلك مع استمرار المتخيلة في محاكاتها .

وتقبل المتخيلة على بنطاسيا أو لوح الحس المشترك [1] وتحاكى فيه ما قبلت

---

(١) البنطاسيا :أو كما يسميها ابن سينا «الحس المشترك» هو لوح النقش الذي إذا تمكن منه صار النقش فى حكم المشاهد،وربما زال الناقش الحسي عن الحس،وبقيت صورته هيهة فى الحس المشترك فبقي في =

بصورة عجيبة مسموعة ومبصرة وهو ما يحكى عن الأنبياء عليهم السلام من مشاهدة صور الملائكة واستماع كلامهم [1] .

الخاصة الثانية للنبوة :وهى تابعة للقوة النظرية .

ـ ويستدل عليها ابن سينا بأن للحدس والفكر مراتب في التأدية إلى المطلوب بحسب الكيف أي سرعة التأدية وبطئها وبحسب الكم .

ولتلك المراتب حدان : نقصان وكمال .

وحد النقصان : هو أن تنبت جميع أفكار الشخص عن مطالبه. وحد الكمال: هو أن يكون صاحبه في غنى في أكثر أحواله عن التعلم والفكرة .

ولما كان طرف النقصان مشاهداً فطرف الكمال ممكن الوجود ويستشهد على ذلك ابن سينا بقوله ـ ﷺ [2]«أوتيت جوامع العلم» وبقوله تعالى ﴿**وعلمك ما لم تكن تعلم**﴾ [3] وقوله ﴿**ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان**﴾[4]وقوله﴿**يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار**﴾ [5]،وكأن مثال هذه النفس كبريت والعقل الفعال نار فيشتعل فيها دفعة واحدة ويحيلها إلى جوهره ويعبر عن ذلك الغزالى بقوله: يكاد زيتها يضئ ضوء الفطرة ولو لم تمسسه نار الفكرة [6].

الخاصة الثالثة للنبوة: التابعة للنفس :

يرى ابن سينا والغزالى وغيرهما أن للنفس الإنسانية أثرا في العالم المادي.

= حكم المشاهد دون المتوهم،كالقطر النازل خطا مستقيما،وانتقاش النقطة الجوالة محيط دائرة،فإذا تمثلت الصورة فى لوح الحس المشترك صارت مشاهدة سواء كانت فى ابتداء ارتسامها فيه من المحسوس الخارج وبقائها مع بقاء المحسوس أو ثباتها بعد زوال المحسوس أو قوعها فيه لا من قبل المحسوس إذا أمكن

انظر ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ص ٨٧٠ .

(١) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٥٤ ، ١٥٨ . ابن سينا :الإشارات والتنبيهات وشرح الطوسي عليه ص ٨٧٦ ، ٨٩٠ .

(٢) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب(١١) من كتاب التعبير ومسلم فى صحيحه برقم(٥) من كتاب المساجد وأحمد فى المسند جـ٢ ص ٢٥٠،٤١٢، ٤٤٢،٥٠١ .

(٣) النساء :١١٣ . (٤) الشورى :٥٢.

(٥) النور : ٣٥ .

(٦) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٦١ : ١٦٣. وابن سينا : الإشارات والتنبيهات وشرح الطوسي عليه ص ٣٧٠ ، ٣٧١ . و رسالة فى الفعل والانفعال وأقسامهما ص ٣ : ٤ .

ويستدلـون على ذلك بأنه قد ظهر في العلوم الإلـهيـة أن الصور الحسيـة تابعة في الوجود للصور التى في النفوس والعقول الكلية .

ولما كانت الأنفس الإنسانية قريبة الشبه من تلك الجواهر إذ أن النفس جوهر قائم بذاته غـير منطبع في بدن الإنسان ولا في غـيره من الأجسام، بل هو مـفارق للمواد والأجسام مجرد عنها وله علاقة ما ببدن الإنسان ما دام حيا كتعلق مستعمل الآلة بالآلة .

ولما كان للنفس الإنسانية أثر في بدنها مع مباينتها له بالجوهر كما هو واضح في حالة الخوف والغضب والشهوة .

وكانت طبيعة البدن ليست إلا من عنصر العالم .

فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس ملكة يتعدى تأثيرها بدنها وتكون لقوتها كأنها نفس ما للعلم .

وخاصة إذا شـحذت ملكتها بقهر قـواها البدنية التى لها كالشـهوة والخوف والغضب، فتحدث سحب هاطلة ورياح وصواعق وزلازل أو تمنع من ذلك[1] .

ويستدل هؤلاء على ذلك أيضا :

بوجود الحسد [2] .

وبأن النفوس الضـعيفة إذا اجتـمعت على توجية الفكر إلـى شيء معين قد يحصل لها نوع من القوة المؤثرة، كما هو مشاهد في صلاة الاستسقاء [3] .

---

(١) انظر الفارابي : فصوص الحكم ص ٩ . و ابن سينا :الإشارات والتنبيهات وشرح الطوسي عليه ص ٨٩٢ :٩٠٠ ورسالة فى الفعل والانفعال وأقسامهما ص ٥ . و رسالة فى الكلام عن النفس الناطقة ص ١٩٦ . والغزالي : معارج القدس ص ١٦٣ ، ١٦٤ . و الكرماني : راحة العقل ص ٥٦٨ .

(٢) انظر ابن سينا : الإشارت والتنبيهات ص ٨٩٣ ، ٨٩٦ .

(٣) انظر الرازي : النبوات ص ١٩٦ .

وقد يستشهد على ذلك أيضا بما ذكره ابن جرير فى تاريخة عن أشياخ من غسان وبني القين من أن المسلمين فى حصارهم لحمص كبروا تكبيرة زلزلت معها المدينة وتصدعت الحيطان ثم كبروا الثانية فتهافت الدور واستسلمت المدينة انظر جـ٣ ص ٩٧ .وانظر الكاندهلوي : حياة الصحابة جـ ٤ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

وبأن البخار مع خفته يستطيع أن يدفع قاطرة وباخرة والكهرباء مع عدم رؤيتها تستطيع أن تدير المصانع وتنير المدن بأكملها، فكذلك الإرادة الإنسانية .

ومن ثم فبناء على ما سبق يمكن تفسير الدعوات واللعنات تفسيراً جديداً يعود إلى تأثير النفس في الأشياء وربما استدل على ذلك بقوله ـ ﷺ ـ «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة. . .»[1] وبقوله: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة» [2] وبقول عمر رضى الله عنه«إني لا أحمل هم الإجابة ولكنى أحمل هم الدعاء» .

وبقول المسيح ـ عليه السلام: «الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له» [3] .

فالإيقان بالإجابة وحمل هم الدعاء قد لا يكونا إلا حسن توظيف للإرادة وعمل النفس. وهو ما اصطلح ابن عربى على تسميته «بجمعية الهمة» [4].

ويرى ابن سينا أن: هذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي منسوبة إلى الهيئة النفسانية المستفادة من ذلك المزاج التى هي بعينها التشخص الذى تصير النفس معه نفسا شخصية، وربما تحصل بمزاج طارئ وربما تحصل بالكسب كما للأولياء » [5] .

ومن ثم فطبعى جداً أن لا يفرق ابن سينا وكذلك الغزالى بين النبى وغيره إلا بأن الذى يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيرا رشيدا مزكيا لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء والذى يقع له هذا ثم يكون شريرا ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث [6] .

ويرى بعض الباحثين أن: الفارابى وابن سينا والغزالى وغيرهم وإن قالوا بتأويل المعجزة إلا أن تأمل كلامهم لا يفضى إلى القول بكسبيتها .

---

(١) رواه الترمذي والحاكم عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب(٢١) من كتاب الدعوات ومسلم فى صحيحه برقم (٨ ،٧) من كتاب الذكر،وأحمد فى المسند جـ٣ ص ١٠٧ . (٣) إنجيل مرقص الأصحاح (١١) آية (٢٣) .

(٤) انظر الباب الثالث الفصل الثانى التقسيم الخامس للمعجزات .

(٥) الطوسي:شرح الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٧ .

(٦) انظر ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ص٨٩٨ ، ٨٩٩ . والغزالي : معارج القدس ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

يقول أحد هؤلاء الباحثين :[1] «إنه للحقيقة والإنصاف يجب أن نقول: إن الفارابى يعتبر القوة النفسية خاصة نبوية فكأنها لا تتعدى النبى إلى غيره، وإذا كان القول بالنبوة على الوجة المذكور عند الفلاسفة يوهم كسبيتها، وبالتالى يوهم عدم ختمها برسالة الإسلام فالحق أن ذلك لازم لم يلتزمه فلاسفة الإسلام .

حيث اننا نجد تصريحات لهم بختم النبوات بنبوة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ » .

فقد قال ابن سينا في رسالة أضحوية في أمر المعاد[2] : «إن الشريعة الجائية على لسان نبينا محمد ـ ﷺ ـ جاءت بأفضل ما يمكن أن تجئ عليه الشرائع وأكمله، ولهذا صلح أن تكون خاتمة الشرائع وآخر الملل، ولهذا المعنى قال ـ ﷺ ـ «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

ولكن يناقض هذا الاتجاه ويؤكد قولهم بالكسبية قول ابن سينا : «إذا بلغك أن عارفا حدث عن غيب فأصاب متقدما ببشرى أو نذير فصدق ولا يتعسرن عليك الإيمان به فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسبابا معلومة» [3] .

وقوله «ولعلك قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتي بقلب العادة . . . فتوقف ولا تعجل، فإن لأمثال هذه أسبابا في أسرار الطبيعة » [4] .

وكذلك قوله« بأن الذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء. . . والذى يقع له هذا ثم يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث» [5] .

ثم تأكيده على كلامه بقوله: «اعلم أن هذه الأشياء ليس سبيل القول بها والشهادة لها إنما هي ظنون إمكانية صير إليها من أمور عقلية فقط، وان كان ذلك أمرا معتمداً لو كان ولكنها تجارب لما ثبتت طلبت أسبابها» [6] .

وهو نفس كلام الغزالى في معارج القدس «والذى يقع له هذا الكمال في

---

(١) محمود عبد المعطي بركات : قضايا النبوات ص ٦٩ .
(٢) ابن سينا : رسالة أضحوية فى أمر المعاد ص ٥٨ .
(٣) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٦١ .
(٤) السابق ص ٨٩٢ .
(٥) السابق ص ٨٩٨ ، ٨٩٩ .
(٦) السابق ص ٨٩١ .

جبلة النفس ثم يكون خيرا متحليا بالسيرة الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين مجتنبا عن الرذائل ودنيات الأمور، فهو ذو معجزة من الأنبياء. . . أو كرامة من الأولياء. . . ثم من يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث.

واعلم أن هذا الأشياء ليس القول بها والشهادة لها: هي ظنون إمكانية سير إليها من أمور عقلية فقط وإن كان ذلك أمراً معتمداً لوكان ،ولكنها تجارب لما ثبتت طلب أسبابها» (١) .

ثم إن استدلال الباحث بأن الفارابى : يعتبر«القوة النفسية خاصة نبوية » على أنه ينفى القول بالكسبية. استدلال باطل لأن قولنا إن معرفة الرياضيات مثلا خاصة بعلماء الرياضيات لا يعنى أن معرفة الرياضيات ليست كسبية. فالاختصاص قد يكون بالاكتساب وقد يكون بالاصطفاء .

وأما استدلال الباحث على عدم القول بالكسبية عند ابن سينا لتصريحه بختم النبوة في رسالته الأضحوية فإن لذلك تفسير ت متعددة .

١ ـ إما الطعن في نسبة أحد هذين الرأين المتعارضين لقائل واحد .

٢ ـ وإما أن يكون هذان الرأيان يمثلان مرحلتين تطوريتين مختلفتين من مراحل التطور الفكرى لدى الكاتب .

٣ ـ إما أن يكوم أحد هذين الرأيين هو ما يعبر عن وجهة نظر الكاتب الحقيقية ويكون الرأي الآخر هو مجرد رأي يحاول به الكاتب إرضاء العامة وخاصة إذا كان ما يمثل وجهة نظر الكاتب الحقيقية مخالفا لظاهر الشرع .

٤ ـ وإما أن يكون أحد هذين الرأيين هو ما يمثل وجهة نظر الكاتب الحقيقية ويكون الرأي الآخر هو مجرد رأي قاده إليه منهجه العقلي الذى فرض عليه ليواجه أقواما من الملاحدة لا يسلمون إلا بمثل هذه المناهج العقلية الملتوية فقادته تلك المناهج الخاطئة إلى هذه النتائج المرفوضة والتى يرفضها هو نفسه ولكنه لم يجد بداً من التسليم بها لا عن اقتناع بها ولكن إفحاما للخصم وإلزاما له بما أدى إليه منهجه .

وفي النهاية أقول: إنه بصرف النظر عن حقيقة رأي هؤلاء الفلاسفة في كسبية

---

(١) الغزالي : معارج القدس ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

النبوة فإنهم إن عنوا من كلامهم أنها مكتسبة فهذا ما نرفضة، ونجيب عنه هنا، وإن عنوا من كلامهم أنها غير مكتسبة فلا إشكال حينئذ .

ومن هؤلاء المؤولين من يرى في إجابة الشجرة التى دعاها الرسول فأتت إليه ثم عودها إلى مكانها [1] أن ذلك كان بجاذب ودافع .

ويرد عليهم القاضى عبد الجبار بأنه لو كان كذلك لكان يجب أن يرى الناس ذلك مع شدة حرصهم على التفحيص عن حاله. (ثم أي دافع هذا وأي جاذب هذا في هذه البيئة البدوية) .

ويقولون كذلك عن حنين الجذع له ـ ﷺ [2] لعله كان في الجذع خروق تتخرق الريح فيها فيسمع منها ذلك الصوت شبيها بالحنين .

ويرد عليهم القاضى عبد الجبار: بأنه لو كان كذلك لكن يجب أن يسمع قبل ذلك أو بعده ومعلوم أن ذلك لم يكن يسمع إلا في الحال الذى قلناه [3] .

ويرى مصطفى صبرى كذلك على ما نسب إلى محمد عبده من أنه كان يحمل انفلاق البحر لسيدنا موسى ومن معه، ثم غرق فرعون وجنوده فيه على الجزر والمد اللذين كثيرا ما يقعان في البحر.

بأنه من المستحيل عادة وقوع جزر ومد مثل ذلك ثم إن مصادفتها لزمان اجتياز البحر أيضا مستحيل عادة، وكذلك احتمال علم موسى المسبق بذلك الزمان لأنه حتى وإن علم مسبقا بذلك الزمان فلن يمكنه موافقة لحظة عبوره لهذا المد والجزر أبداً .

ثم إن في ذلك تكذيبا للقرآن في ترتيبه انفلاق البحر على ضربه بالعصا [4] قال تعالى [5] : ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق

---

(١) رواه ابن ماجة فى سننه فى باب(٢٣) من كتاب الفتن، وأحمد فى المسند جـ٣ ص١١٣، والدارمي فى سننه فى باب(٤) من المقدمة .

(٢) فقد روى البخارى فى صحيحه فى الباب(٢٥) من كتاب المناقب، وابن ماجة فى الباب(١٩٩) من كتاب الإقامة والدارمي فى سننه فى باب(٦) من المقدمة وباب(٢٠٢) من كتاب الصلاة. « أن النبي ﷺ كان يخطب على جذع قبل أن ينصب له المنبر فلما أن نصب له المنبر تحول إلى المنبر فحن الجذع حنين الناقة إلى ولدها ولم يسكن حتى احتضنه النبي ﷺ فسكن »

(٣) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٩٥ ، ٥٩٧.

(٤) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٣٧ ، ١٣٨ . (٥) الشعراء : ٦٣ .

كالطود العظيم﴾ .

وفي مبحث المعجزة والسحر أمثلة كثيرة لأمثال هذه التأويلات، سبق الرد عليها .[1]

تعليق عام :

١ ـ إن التأويل الطبعى مقبول ما تحققت شروط عدة هى :

ـ إذا لم تكن دلالة النص الشرعى قطعية .

ـ وكان هناك من النصوص والأدلة ما يمنع من حمل النص على ظاهره .

ـ وطالما بعد التأويل عن التكلف والتعسف ومخالفة اللغة التى جاء بها النص الشرعى .

ـ ولم يخالف ظاهر الشرع .

ـ ولم يجزم به صاحبه .

٢ ـ إن حقيقة المعجزة وحكمتها الأولى أنها خارقة للنواميس والسنن المطردة في الكون [2]، وبالتالى فأي محاولة لتأويلها أو تفسيرها طبعيا فهي محاولة فاشلة ليس لها أي أساس من الصحة .

ثم إنا إذا التمسنا تفسيرا طبعيا لبعضها فسوف نصل إلى نوع من المعجزات لا يمكن تفسيره لاستحالة هذا التفسير عقلا فنقف بالشخص الذى نريد أن نرضى عقله العلمى عند معجزات لا يمكن الإيمان بها من طريق العلم، فنجعله في ريب وشك ونرجع به القهقرى إلى الإنكار من حيث لا ندرى، وعلى ذلك فمحاولة تفسير المعجزات واخضاعها للنظريات العلمية محاولة فاشلة بذاتها وفاشلة بغايتها، ومفسدة لمعنى المعجزة ومؤدية لزيادة تشكيك الناس [3] .

---

(١) وانظر المزيد من محاولات التأويل هذه:جريدة الأهرام المصرية عدد ٩ / ٣ / ١٩٩٤ .

(٢) ومن ثم فإن خرق المعجزة لقوانين الطبيعة ينبغي ألا يكون من دواعي إنكارها لا كما يدعي بعض الباحثين

أنظر . Encyclopaedia Britannica Vol .15 p 586

(٣) انظر عبد الفتاح أحمد الفاوي : النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراه) ص٣٩٥ .

وانظر : Joseph Butler : The Analogy of Religion pp.359 : 367

Charles H. Coates : The Red Theology in The Far East,p.30

ومن ثم فكلام ابن سينا والغزالى السابق الذى لم ير فرقا بين المعجزة والسحر إلا من حيث أن «الذى يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكيا لنفسه فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء. . .والذى يقع له هذا ثم يكون شريرا. . فهو الساحر الخبيث»[1] فهو كلام باطل لأن هذه الصفات الثلاث التى جعلوها خاصة للأنبياء توجد لعموم الناس وحتى للمشركين .

وليس أدل على ذلك من أنهم اعترفوا أن ذلك يحدث للساحر والمجنون ،وصدقوا بذلك قول الله تعالى عنهم﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[2] .

ولم يفرقوا بين ما يحدث للساحر والمجنون وبين ما يحدث للنبى إلا بأن الساحر يأمر بالشر والمجنون ناقص العقل،أما النبى فهو كامل العقل ويأمر بالخير،أي أنه ليس هناك فارق إلا ذلك الفارق الذي يشارك النبى فيه غيره من عامة الناس .

٣ ـ إن معجزات الأنبياء عليهم السلام ليست من الأمور الكسبية لأنها كما قلنا خارقة للسنن الكونية المطردة .حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها .

يقول تعالى للرسول ﷺ ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾[3]،ويأمره أن يجيب مقترحي الآيات من قومه بقوله ﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا﴾ [4] وقوله ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ (٥) وقوله ﴿إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ [6] .

وورد في العهد الجديد على لسان المسيح عليه السلام: «لا يقدر الابن أن يفعل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل » [7] .

وكذلك قوله :«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى» [8] .

---

(١) ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٨ ، ٨٩٩ . وانظر الغزالي : معارج القدس ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) الذاريات : ٥٢ ، ٥٣ . (٣) الأنفال : ١٧ . (٤) الإسراء : ٩٣ .
(٥) العنكبوت : ٥٠ . (٦) يونس : ٢٠ .
(٧) يوحنا : ٥ / ١٩ . (٨) السابق : ٥ / ٣٠ .

وهذا ما اعترف به سحرة فرعون بعدما رأوا الآيات قائلين لفرعون : «هذا أصبع الله» [1] .

ولو كان للأنبياء قدرة على شيء دون ما يؤيدهم الله تعالى به لكان أولى بهم أن يدفعوا عن أنفسهم الخوف والمرض والإيذاء والقتل ولجعلوا كل الناس مؤمنين ، وخاصة أقرباءهم وأحباءهم كابن نوح وأبي إبراهيم وعم محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أجمعين .

والمشاهد عكس ذلك .

فالأنبياء تخاف، فقد خاف موسى عليه السلام حين ألقى عصاه فتحولت إلى حية تسعى، فولى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه يقول تعالى [2] **﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون﴾** .

وكذلك خاف إبراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لا يأكلون من عجله الذى ذبحه لهم. يقول تعالى [3] **﴿فأوجس منهم خيفة﴾** .

والأنبياء كذلك يصيبها ما يصيب الناس من البلاء والمرض بل والقتل، بدليل قوله تعالى **﴿وقتلهم الأنبياء﴾** [4] وقوله ـ ﷺ «أكثر الناس بلاء الأنبياء. . .»[5] .

ولا تهدى الأنبياء كذلك من أحبت، يقول تعالى لرسوله الكريم ـ ﷺ: **﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾** [6] . ويجيب إبراهيم عليه السلام لما قال: **﴿ومن ذريتى،قال لا ينال عهدى الظالمين﴾**[7] ويقول لنوح عليه السلام **﴿لا تخاطبنى في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾** [8] .

ويلزم على قول الفلاسفة باكتساب المعجزة تجويز نبى بعد سيدنا محمد [9] ـ

---

(١) الخروج : ٨ / ١٩ . (٢) النمل : ١٠ .

(٣) الذاريات : ٢٨ . (٤)آل عمران : ١٨١ . .

(٥) رواه البخاري فى الباب(٣) من كتاب المرضي،والترمذي فى سننه فى باب(٥٧) من كتاب الزهد،وابن ماجة فى سننه فى باب(٢٣) من كتاب الفتن،والدارمي في الباب(٦٧) من كتاب الرقاق،وأحمد فى المسند جـ١ ص ١٧٢ ، ١٧٤، ١٨٠ ، ١٨٥ . جـ ٦ ص ٣٦٩ .

(٦) القصص : ٥٦ . (٧) البقرة : ١٢٤ .

(٨) المؤمنون : ٢٧ .

(٩) ولنا فى ذلك وقفة متأنية فى دراسة مستقلة بعنوان « ختم النبوة بين العقل والنص » .(تحت الطبع) .

ﷺ أو معه وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة، فقد قال تعالى ﴿وخاتم النبيين﴾ [1] وقال عليه الصلاة والسلام «ليس بعدى نبى» [2] وأجمعت الأمة على إبقائه على ظاهره .

٤ ـ إن الرسالة هبة إلهية لا تكتسب بجهد ولا تنال بكسب ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾[3] و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [4] . ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [5] فالنبى تختاره العناية الإلهية بدقة فيربى تربية خاصة بحيث يكون في جميع أطواره مكلوءا بالرعاية محفوظا بالعناية .

ففى موسى عليه السلام. يقول القرآن الكريم ﴿وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى﴾ [6] . ويقول :[7] ﴿ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى﴾ .

وفي محمد عليه الصلاة والسلام، يقول رب العزة: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى﴾ [8] .

وفي إرميا تقول التوراة على لسان الرب: «قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك» [9] ويقول اشَعْيَاء: [10] «الرب من البطن دعانى من أحشاء أمى ذكر اسمى . الرب جابلى من البطن عبدا له . . .» .

ويقول عاموس: «لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل» [11] . كما يقول بولس الرسول: «الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم» [12] .

ومنشأ الخطأ في رأيى هو الخلط بين :

أ ـ ما إذا كانت الرعاية من أجل النبوة فتكون النبوة هبة وهو ما نراه .

ب ـ أو أن النبوة هي النتيجة الطبعية للهداية . فتكون النبوة مكتسبة وهذا ما نرفضه .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ . (٢) رواه البخاري فى صحيحه فى باب(٧٨) من كتاب المغازي وأحمد فى المسند جـ٣ص٣٣٨ جـ٦ص٣٦٩، ٤٣٨ . (٣) الحج : ٧٥ . (٤) الأنعام :١٢٤ .
(٥) الشورى : ٥٢ . (٦) طه : ٣٩ . (٧) طه : ٤٠-٤١ (٨) الضحى : ٦ ، ٨.
(٩) إرمياء : ١ / ٥ . (١٠) إشعياء : ٤٩ / ١ - ٥ .
(١١) عاموس ٧ : ١٤ ـ ١٥ . (١٢) رومية ٨ : ٢٩ وانظر غلاطيه ١ : ١٥ .

٤ ـ أما مسألة رد خوارق العادات إلى قوة الرسول النفسية فيدلل ابن تيمية على بطلان ذلك بقوله: إن فعل النفس مشروط بإرادتها«والعقل الإرادى مشروط بالشعور وخوارق العادات التى للأنبياء منها ما يكون النبى شاعراً به ومنها ما لا يكون مريداً له، فلا يكون ذلك من فعل نفسه بل ومنها ما يكون قبل وجوده ووجود قدرته، ومنها ما يكون بعد موته ومفارقة نفسه لهذا العالم، ومن المعلوم أن ما يكون قبل أن يصير لنفسه قوة ونحو ذلك يمتنع أن يكون مضافا إلى قوته، فإن المعدوم لا قوة له» (١) .

وأرى أنه إذا اعترفنا أن المعجزة ليست كسيبة وأنها خارق حقيقي متميز، ولكن الله أعطى نبيا قوة لنفسه يؤثر بها فليس في ذلك إشكال طالما كانت تلك القوة النفسية غير مكتسبة. وطالما كانت مختصة بالأنبياء، ولا تكون لأحد سواهم .

كما كان الحال مع سليمان عليه السلام، وكما كان يفعل المسيح في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وكما قال تعالى في الحديث القدسي «إذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه» (٢) .

ولكن يبقى الفرق الحقيقى بين الرأيين في أن القول بأن خرق العادة من عند الله مباشرة معناه أن النبى أو الولى لا يتسطيع تحديد زمان ومكان ونوع وكيفية المعجزة إلا إذا أعلمه الله بذلك .

أما القول بأن خرق العادة من تأثير نفس النبى فمعنى ذلك أن الله يعطى النبى أو الولى القوة النفسية، وله أن يستخدمها في الزمان والمكان وبالكيفية التي يريدها كما أعطى الناس جميعا القوة البدنية .

ولا إشكال في ذلك ولكن القضية الحقيقية فهى في القول بكسبية المعجزة وعدم تميزها عن غيرها من الخوارق غير الحقيقية .

٦ ـ أما بالنسبة لطبيعة الوحى فخلاصة رأي هؤلاء الماديين: أن الوحى إلهام كان يفيض من نفس النبى الموحى إليه لا من الخارج (٣) .

فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة، أو

---

(١): ابن تيمية : الصفدية .
(٢) رواه البخارى : فى صحيحه فى الباب (٣٨) من كتاب الرقاق .
(٣) انظر Hastings Rashdall : Philosophy and Religion , p . 147 .

يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذى هو مظهر من مظاهر الوحى عند جميع الأنبياء .

فهؤلاء الماديين لا يقولون بملائكة يرون، وربما كانت الملائكة عند بعضهم نفوس مجردة، ولا كلام لهم يسمع، لأنه من خواص الأجسام، ومآل الوحى عندهم إلى تخيل ما لا وجود له في الحقيقة، كما هو حال المرضى والمجانين على ما صرحوا به .

ولو كان أحدنا آمراً وناهيا من قبل نفسه بما يوافق المصلحة، ويلائم العقل لم يكن نبيا باتفاق، فكيف من يأمر وينهى من قبل ما يرجع إلى تخيلات لا أصل لها، وربما خالفت المعقول [1] .

والفلاسفة من علماء اليهود مع أنهم ارتضوا أن تكون المخيلة طريقا للوحى كفلاسفة المسلمين إلا إنهم استثنوا موسى عليه السلام من ذلك حتى يجعلوه فوق الأنبياء جميعا وحتى يبينوا أن ليس كتاب صحيح غير كتابه عليه السلام .

يقول ابن ميمون: [2] «إن كل نبى إنما يسمع الخطاب بواسطة ملك إلا سيدنا موسى: الذى قيل فيه(فما إلى فم أخاطبه) [3] فلتعلم: أن الأمر كذلك، وأن الواسطة هنا: هى القوة المتخيلة لأنه إنما يسمع أن الله يكلمه في حلم النبوة وسيدنا موسى من فوق الغشاء من بين الكروبين [4] دون تصرف القوة المتخيلة».

(١) انظر الإيجي: المواقف ص ٣٣٨ . (٢) ابن ميمون : دلالة الحائرين ص ٤٤٣ .

(٣) ففي التوراة: «إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه،وأما عبدي موسى فليس هكذا،بل هو أمين فى كل بيتي فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز» (العدد ١٢ / ٦ـ ٨)

ويقول ابن ميمون فى شرح النص السابق: «ولم يصرح بأن فى المرأى سماع كلام من الله....ويكون كل كلام يسمع على أى وجه سمع إنما كان فى حلم كما جاء النص فى حلم أخاطبه،وأما مرأى النبوة فلا يدرك فيه إلا أمثالا،واتصالات عقلية تحصل أمورا علمية شبه التي تحصل عن النظر..وهو قوله فبالرؤيا اتعرف له. (انظر ابن ميمون: دلالة الحائرين ص ٤٤٢)

والمراد من مرأى النبوة فى قوله(فبالرؤيا استعلن له) «حالة مزعجة مهوله تصحب النبي فى حال اليقظة» السابق : ص ٤١٨ . وإن وجدت نصوص تشهد بكلام سمعه الأنبياء فى المرأى، فيرد ابن ميمون ذلك إما إلى: «أن يكون الله هو الذي يخيل له أنه يخاطبه» أو أن «يكون أول ذلك الأمر مرأى ثم انتهى للاستغراق وصار حلما» السابق ص ٤٤٢ . إلا مع سيدنا موسى بالطبع .

(٤) ففي التوراة: «وأنا اجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة،بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل» (الخروج ٢٥ / ٢٢) .

ثم إنه لو قال المؤولون: إن هذه الصور التى يشاهدها الأنبياء والأولياء وغيرهم، ليست موجودة في الخارج لأنها لو كانت موجودة في الخارج لوجب أن يدركها كل من كان سليم الحس إذ لو جاز أن لا يحصل الإدراك مع حصول شرائطه لجاز أن يكون بحضرتنا جبال ورعود ونحن لا نراها ولا نسمعها، وذلك يوجب الجهالات .

فيقال لهم: هذه الجهالات التى التزمتموها على هذا القول: هي على قولكم ألزم.

لأنه لو جاز أن يرى الإنسان صورا. ويشاهدها ويتكلم معها، ويسمع أصواتها، ويرى أشكالها، ثم لا تكون موجودة البتة في الخارج، جاز أيضا في كل هذه الأشياء التى نراها ونسمعها من صور الناس والجبال والبحار وأصوات الرعود، أن لا يكون لشيء منها وجود في الخارج، بل يكون محض الخيال، ومحض الصور المرتسمة في الحس المشترك، ومعلوم أن القول به محض السفسطة بل نقول هذا في البعد عن الحق أشد من الأول، لأنه على القول الأول يكون كل ما رأيناه فهو موجود حق إلا أنه يلزمنا تجويز أن يكون قد حضر عندنا أشياء ونحن ما رأيناها، وتجويز هذا لا يوجب الشك في وجود كل ما رأيناه وسمعناه .

أما على القول الذى يقولونه فإنه يلزم وقوع الشك في وجود كل صورة رأيناها، وكل صوت سمعناه، وذلك هو الجهالة التامة والسفسطة الكاملة (١) .

ومما يؤكد أن وحى النبى إلهي، وأن مصدره ليس الذكاء والعبقرية أو اللاشعور والحاسة السادسة: النظر في حال الداعى وفى قيمة الدعوة فإن في ذلك إعجازا تزول معه كل هذه الشبهات (٢) .

فما يأتي به الأنبياء من وحى يكون وحياً صادقا لا يأتيه الكذب أبداً يقينياً واضحاً صريحا مفصلا يمكن للنبى أن يعبر عنه أبلغ تعبير فالعبارة نفسها قد تكون موحاة كما هو شأن القرآن الكريم ﴿آيات بينات﴾ (٣) بـ﴿لسان عربى مبين﴾ (٤) .

هذا بالإضافة إلى أن وحى الأنبياء به من أنواع الإعجاز ما يمنع أي ريبة فيه

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) للدكتور محمد عبد الله دراز جهد مشكور فى كتابه «النبأ العظيم» فى دحض شبهة الوحي النفسي، فليرجع إليها من أراد الاستزاده . (٣) البقرة : ٩٩ . (٤) النحل : ١٠٣ .

هذا بعكس وحى غير الأنبياء يقول تعالى:[1] ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾، سواء كان وحى عقولهم أو وحى نفوسهم ولا شعورهم، فلابد فيه من الخطأ ولا يقطع به صاحبه أبدا على وجه اليقين، ولابد فيه من الغموض واحتمال المعانى الكثيرة والتفسيرات المتعارضة هذا بالإضافة إلى أنه وحى ناقص غير كامل [2] .

ومما يؤكد بطلان فكرة الوحى النفسى كذلك ورود كثير من النصوص التى تروى نزول جبريل عليه السلام في صورة بعض الأعراب، فيراه الرسول ـ ﷺ ـ ويراه الصحابة على نفس الصورة البشرية التي يراها الرسول ـ ﷺ [3] .

وأن ما كان يأتيه من وحى ـ ﷺ كصلصلة الجرس كان الصحابة يسمعونه فعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ «أنه كان إذا نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل» [4] .

وأنه ـ ﷺ ـ كان إذا نزل عليه الوحى ثقل لذلك، وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذر، ها ينفصم، وربما بركت .

فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال: «أنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى» [5] .

ثم أنه ـ ﷺ ـ وكذلك سائر الأنبياء ـ كان يستطيع بسهولة التفريق بين فكره الخاص وبين وحى السماء وهذا ما تعجب له المستشرقون [6] فإن ذلك يبطل فكرة الوحى النفسى من أساسها .

ثم «إن عزو ذلك الاطلاع المختص بالنبى إلى اختلاف النفوس في صفاء

---

(١) النساء : ٨٢ . (٢) انظر مبحث قدرة السحر علي التنبؤ بالغيب .

(٣) انظر أبو داود: فى سننه فى باب القدر من كتاب السنة جـ٢ ص ٥٢٦ وانظر كذلك البخاري فى صحيحه فى كتاب الإيمان جـ١ ص٢٠ وأحمد فى المسند جـ١ ص ٢٧ .

(٤) رواه أحمد فى المسند جـ١ ص٣٤ جـ٤ ص٢٦٨، ٢٧١، والترمذي فى سننه فى الباب الأول من تفسير سورة «المؤمنون» والدارمي فى سننه فى الباب الثاني من المقدمة .

(٥) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب (٢) من كتاب الصلاة والباب(٨) من تفسير سورة «النساء» والنسائى فى سننه فى الباب (٤) من كتاب الجهاد وأحمد فى المسند جـ ٥ ص ٨٤ .

(٦) انظر P.M.Holt - ANN K.S. Lambton - Bernard Lewis:The Cambridge History of Islam . Vol (1) p.31 .

جوهرها وكدره مع اتحادها بالنوع كما هو مذهب الفلاسفة مشكل .

لأن المساواة في الماهية توجب الاشتراك في الأحكام والصفات وأما ادعاؤهم إمكان الاتصال بالمبادئ العالية والانتقاش بما فيها فمبنى على مقدمات خطابية»[1].

(١) انظر الإيجي : المواقف ص ٣٣٧ .

obeikandl.com

الفصل الخامس

دلالة المعجزة

- وجه دلالة المعجزة
- نسبية الدلالة
- الدلالة بين الإقرار والإنكار

obeikandl.com

١ ـ وجه دلالة المعجزة :

إذا كانت المعجزة تدل على الصدق دلالة قطعية فلابد لها من وجه دلالة وإن لم نعلمه بعينه فقد تكون دلالتها سمعية أو عادية أو وضعية أو عقلية . . .

الدلالة السمعية :

ولا يمكن أن تكون دلالتها سمعية إذ يستحيل أن تثبت صحة الأدلة السمعية قبل ثبوت دلالة المعجزة لأنه دور .

الدلالة العادية :

وهي كدلالة قرائن الأحوال على خجل الخجل ووجل الوجل وخوف الخائف

يقول الإيجي : [١] «في كيفية دلالتها : وهي عندنا ـ أي الأشاعرة ـ إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيبها ، فإن إظهار المعجز على يد الكاذب ، وإن كان ممكنا عقلا فمعلوم انتفاؤه كسائر العاديات ، لأن من قال أنا نبي ثم نتق الجبل وأوقفه على رؤوسهم وقال إن كذبتموني وقع عليكم وإن صدقتموني انصرف عنكم ، فكلما همّوا بتصديقه بعد عنهم ، وإذا هموا بتكذيبه قرب منهم ، علم بالضرورة أنه صادق في دعواه ، والعادة قاضية بامتناع ذلك من الكاذب .

وقد ضربوا لهذا مثلا : قالوا : إذا ادعى الرجل بمشهد الجم الغفير ، أني رسول هذا الملك إليكم ، ثم قال للملك إن كنت صادقا فخالف عادتك وقم من الموضع المعتاد لك من السرير واقعد بمكان لا تعتاده ، ففعل ، كان ذلك نازلا منزلة التصديق بصريح مقاله ، ولم يشك أحد في صدقه بقرينة الحال .

وليس هذا من باب قياس الغائب على الشاهد ، بل ندعي في إفادته العلم الضرورة العادية» .

الدلالة الوضعية :

وهي كدلالة الألفاظ بالوضع على معانيها . قالوا لأن المواضعة قد تعرف بصريح يدل على التواضع كما لو قال شخص لشخص إن فعلت كذا فاعلم بذلك قصدي في طلبك ففعل ما واضعه عليه ، فإن من وقعت معه المواضعة يفهم طلبه على حسب ما واضعه عليه ، فقد تعرف المواضعة بصريح من أحد المتواضعين وبفعل

---

(١) الإيجي : المواقف ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

من الثانى من غير أن يسمع كلامه [1] كما هو الحال في مثال الملك السابق، فإجابة الملك تقوم مقام التصريح بالمواضعة .

وكما فعل النبى - ﷺ - في غزاة الفتح لما كانت راية الخزرج مع سعد بن عبادة، وكان فيه حدة، وقال لا قريش بعد اليوم اليوم يوم الملحمة اليوم يستحل الحرمة، قيل للنبى - ﷺ - إنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة، فقال قولوا له يعطى الراية لابنه قيس قيل إنه لا يقبل منه فقال هذه عمامتى قولوا له قد أمر رسول الله - ﷺ - بذلك، فلما رأى عمامته مع من جاء بها علم أنه ليس له في إعطائه عمامته مقصود إلا أن تكون علامة، ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك .

وكذلك لما أعطى أبا هريرة نعلية ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له، فإنهم إذا رأوا معه نعليه علموا أنه لم يعطه النعلين إلا علامة[2] .

الدلالة العقلية :

يقول الجوينى :[3] «إن المعجزة لا تدل على صدق النبى حسب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها، فإن الدليل العقلي يتعلق بمدلوله بعينه ولا يقدر في العقل وقوعه غير دال عليه، وليس كذلك سبيل المعجزات .

وبيان ذلك بالمثال في الوجهين أن الحدوث لما دل على المحدث، لم يتصور وقوعه غير دال عليه وانقلاب العصا حية، لو وقع بديا من فعل الله عز وجل من غير دعوى نبى، لما كان دالاً على صدق مدع، فقد خرجت المعجزات عن مضاهات دلالات العقول.» .

ويجيب الجوينى عن ذلك بأن«الدليل ليس مجرد وجود الخارق بدون دلالة النبوة، وإنما الدلالة من حيث إجابة دعوى المتحدي بالخارق، فمجرد الخارق لا يدل إذن، فلم يكن هذا نقضا على من أجراها مجرى الأدلة العقلية » [4] .

---

(١) ويقول الجويني فى ذلك:«إن المعجزة تدل على الصدق من حيث تنزل منزلة التصديق بالقول - الإرشاد ص ٢٧٣ . (٢) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٨٨ .

(٣) الجويني : الإرشاد ص ٢٧٣ .

(٤) السنوسى:حواش على شرح الكبرى ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

ويرى المعتزلة أن ظهور المعجزة على يد الكاذب ممتنع عقلا: لأنه إضلال من الله على فرض وقوعه والإضلال من الله ممتنع عقلا [1]، ومن ثم تصبح دلالة المعجزة ذات طابع عقلي .

أما ابن تيمية فيعطى المعجزة طابعها العقلي الذى يمثل بعدا من أبعاد ثلاث تمثل دلالة المعجزة البعد الوضعى البعد العقلى البعد الضرورى أو النظرى .

يقول ابن تيمية: [2] «والدليل الذى هو الآية والعلامة ينقسم إلى ما يدل بنفسه وإلى ما يدل بدلالة الدال به» .

وهم يسمون ما يكون بقصد الدال كالكلام دليلا وضعيا، فالأقوال والأفعال التى يقصد بها الدلالة كالعقد وما يجعلة الرجل علامة، ونحو ذلك يسمونه دليلا وضعيا ويسمون ما يدل مطلقا دليلا عقليا، والأجود أن يقال جميع الأدلة عقلية بمعنى أن العقا اذا تصورها علم أنها تدل فالدليل يدل بصفة هو في نفسه عليها لا بصفة هى فى المستدل، ولكن كونه عقليا يرجع إلى أن المستدل علمه بعقله، وهذا صفة في المستدل لا فيه أو الأجود أن يقال الدليل قد يدل بمجرده وقد يدل بقصد الدال على دلالته فإذا أريد تقسيمها إلى عقلي مجرد، وإلى وضعى يحتاج مع العقل إلى قصد من الدال فهو تقسيم صحيح. فإن العقل شرط في جميع العلوم التى تختص بالعقلاء [3] .

- أما عن البعد الضرورى أو النظري فهو يقول: [4] «للناس في وجه دلالة المعجزات وهى آيات الأنبياء على نبوتهم طرقا متعددة، منهم من قال دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة ومنهم من قال تعلم بالنظر والاستدلال، وكلا القولين صحيح فإن كثيرا من العلوم في هذا كدلالة الأخبار المتواترة فإنه قد يحصل بالخبر علم ضرورى، وقد يحصل العلم بالاستدلال. . . والآيات: من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بينا لا يحتاج فيه إلى وسط

---

(١) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٧١ .

(٢) ابن تيمية : النبوات ص ١٧٨ .

(٣) انظر السابق ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب ، فقد يجئ المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين».

ولكن قد يقال إذا علمنا ذلك اضطرارا لم يكن للتكليف بالعلم بصدق النبى وجها، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين، ويجيب ابن تيمية عن ذلك بأنه إذا حصل العلم الضرورى بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالإقرار بالصانع وعبادته وحده لا شريك له وبتصديق رسله. وطاعة أمره وهذا هو الذى أمرت به الرسل ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علما نظريا بوجود الخالق، وصدق رسله لكن من جحد الحق، أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبينوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذى يعرفه، وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه» (١) .

ومما سبق يتبين لنا أن دلالة المعجزة دلالة عقلية بمعنى أنها تدرك بالعقل وأنها تستلزم المدلول وفطرية بمعنى أن هذا هو شأنها مع بعض الناس لا كلهم، ونظرية مع بعض آخر من الناس، ووضعية، فهى تقوم مقام التصريح بالمواضعة وهى عادية، فهي تدل كدلالة قرائن الأحوال على خجل الخجل ووجل الوجل وخوف الخائف، وما يقوم مقام المواضعة لا يفهم إلا في ضوء العادة، ففى مثال الملك السابق لم تفهم المواضعة إلا بأن خالف الملك عادته، وعلمنا أن من عادته ألا يخالفها إلا لأمر معين وانتفى علمنا بوجود سبب غير تصديق الرسالة .

٢ ـ نسبية الدلالة :

إن المعجزة الكبرى: هى مجموعة القرائن والمعجزات التى يقوى بعضها بعضا حتى تولد العلم الضروري .

والقرينة الواحدة، والمعجزة الحسية الواحدة يتحقق فيها معنى الإعجاز ويستقل في حق بعض الناس لاكلهم وذلك متوقف على طبيعة القرينة أو المعجزة وطبيعة الشخص .

---

(١) انظر السابق ص ٣٥ .

إلا أن المعجزة الحسية بالرغم من ذلك لابد وأن تكون حجة في ذاتها بمعنى أنها تختلف عن الخوارق التى تحدث على يد غير الأنبياء فهي وإن كانت متميزة، وإن كانت علامة حقيقية إلا أن فهمها وإدراكها هو الذى يختلف حسب البيئات والأشخاص، وذلك كالحال في أفراد التواتر فكل فرد وإن كان عدلا ثقة، إلا أن هناك من قد ينكر هذه العدالة فيه فخبره ليس ببرهان للجميع وإن كان برهاناً عند بعضهم ممن خبره وعرفه جيداً .

يقول ابن تيمية:[1] «والآيات من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بينا لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له، ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب، فقد يجئ المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة إما صدقه ، وإما كذبه .

ويقول القاضى عبد الجبار: [2]«وجملة ماله من المعجزات. . . ينقسم إلى: ما يعلم ضرورة و إلى ما يكون الطريق إليه الاستدلال ولا يمكن أن يقال: لو كان في معجزاته ما يعلم ضرورة لا شترك فيه المخالف، والموافق ولعلمه كل عاقل، فإن هذا هو الواجب في الضروريات، لأن العلوم الضرورية تنقسم إلى: ما يكون من بداية العقول فيجب اشتراك العقل فيه، وإلى ما يكون مستندا إلى طريقة نحو العلم بمخبر الأخبار، ونحو العلم بالمدركات وغيرهما، فإن ما هذا سبيله إنما يجب الاشتراك فيه عند الاشتراك في طريقه » .

ويؤكد هذه النسبية : ما سبق أن أكدنا عليه من اختلاف معجزات الأنبياء لتناسب الوعى البشري فى أطواره المختلفة، ففى أطواره الأولى كان ملتصقا بالطبيعة حتى كاد لا يتميز عنها. فكان من حكمة الله تعالى أن جعل إطار المعجزة

---

(١) إبن تيمية : النبوات ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٩٥ .

فى اليهودية هو عالم الطبيعة الكبير (انفلاق البحر مثلا) .

ولما بدا قدر من التمايز عن الطبيعة فى الوعى الإنسانى فى المسيحية ـ إذ تعكس مسيرة الوعى توجها من (الخارج) إلى (الداخل) ـ كان من حكمة تعالى أن تحول إطار تحقيق المعجزة من عالم الخلق الأكبر إلى عالم الخلق الأصغر (الإنسان) .

فأصبح الإنسان بما هو ذات تؤمن وليس بما هو طبيعة تخرق هو إطار تحقق المعجزة (احياء الموتى، شفاء المرضى ، الإخبار بالغيوب)فبدا بذلك وكأن تمايز الوعى عن الطبيعة يعكس أيضا تمايزا للمعجزة عنها.

وأخيراً فإن تمام الوعى بالذات فى الإسلام قد انعكس فى انبثاق ضرب من الإعجاز العقلى وهو القرآن الكريم ـ وإن لم ينفصل انفصالا تاما عن أدنى درجات المعجزة التى تتواقف مع أدنى درجات الوعى[1]مراعاة لاختلاف أحوال المخاطبين بالمعجزة. كانشقاق القمر .

وكما تفاوتت معجزات الأنبياء لتناسب الوعى البشرى فى أطواره المختلفة، تفاوتت كذلك لتناسب أقوام الأنبياء فكانت معظم معجزات الأنبياء من جنس ما نبغ فيه أقوامهم، فمعجزات موسى عليه السلام، العصا واليد البيضاء. . . الخ تناسب نبوغ قوم فرعون في السحر، ومعجزات عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، كانت تناسب نبوغ قومه في الطب، ومعجزة رسولنا ـ ﷺ ـ كانت متعددة الجوانب بلاغية، فكرية تشريعية. .إلخ لتناسب الناس جميعا في كل مكان وفي كل زمان إلى قيام الساعه.

بل و تعددت معجزات النبى الواحد، بل إن قرائن الصدق هى أيضا تعددت، فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لم يعرف دلالة الآخر، وهذا أمر يختلف من إنسان لآخر حسب رجاحة عقله ومقدار فهمه، وثقافته، وطبيعة نشأته، ومن ثم اختلفت أسباب الإيمان من شخص لآخر، وهذا معلوم في الماضى والحاضر [2] .

---

(١) انظر علي مبروك : النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ ص ٢٠٢ : ٢٠٣ .

(٢) انظر ما كتبناه فى المقارنة بين المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية من حيث نوعية المخاطبين .

فوضوح الحكم على المعجزة بأنها معجزة يختلف من إنسان لآخر كما يختلف من معجزة لأخرى .

يقول ابن تيمية:[1] «إن معجزات الأنبياء منها صغار وكبار» ويقول الماوردى:[2] وهذه الأقسام ونظائرها الداخلة في حدود الإعجاز متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة، وإن تفاوت الإعجاز فيها وتباين كما أن دلائل التوحيد قد تختلف في الخفاء والظهور وإن كان في كل منها دليل» .

فمحمد رشيد رضا مثلا يرى أن المعجزات قسمان: تكوينية وروحانية تشبه الكسبية أي أنها بحسب مظهرها قسمان: قسم لا يعرف له سنة إلهية يجرىُ عليها وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية .

ويمثل للقسم الأول: بالآيات التى أيد الله بها موسى ـ عليه السلام وأثبتها القرآن له كالآيات التسع بمصر .

ويمثل للقسم الثانى : بآيات المسيح عليه السلام التى أيده الله تعالى بها، فهى على كونها خارقة للعادة الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس، قد يظهر فيها أنها كلها أو جلها حدثت على سنة الله في عالم الأرواح، كما كان خلقه كذلك، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها، إلا أن مظاهر آياته عليه السلام أعظم من مظاهر سائر الروحانيين من الأنبياء والأولياء .

ويرى محمد رشيد رضا: أن النوع الأول أدل على قدرة الله ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الأسباب والمسببات التى تجرى عليها أفعالهم [3] .

وبنفس هذه النظرة كان بعض اليهود يعير عيسى عليه السلام بضعف معجزاته أمام معجزات أسلافه قائلين«أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلو المن فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا»[4]. «وجاء إليه الفريسيون والصدوقيون ليجربوه فسألوه أن يريهم آية من السماء»[5] ولذا أنزل الله لهم المائدة من السماء كما فى سورة المائدة .

---

(١) انظر ابن تيمية: النبوات ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٢) الماوردى : أعلام النبوة ص ٢٨ .
(٣) انظر محمد رشيد رضا :الوحي المحمدى ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٤) يوحنا : ٦ : ٣ ـ ١٣ .
(٥) متى : ١٥ : ١ .

وكثير من المتكلمين يقسمون المعجزة إلى قسمين: قسم ينفرد الله بالقدرة عليه نحو اختراع الأجسام وإحياء الموتى و،إبراء الأكمه والأبرص وقلب العصا حية ،وقسم يدخل مثله وما هو من جنسه تحت قدر العباد غير أنه يقع منه تعالى على وجه يتعذر على العباد مثله. نحو قلب المدن،ونقل الجبال والإتيان بالقرآن[1].

ويرى بعضهم أن النوع الثانى أبعد عن اللبس لأن إعجازه يثبت عملياً بتجربة شخصية يمكن أن يقوم بها كل من أراد وما حصله الإنسان بنفسه يقنعه ويؤثر فيه أكثر مما فرض عليه من الخارج.

يقول ابن عربى عن النوع الأول: [2] «وذلك عزيز أعنى الوصول إلى العلم به كإحياء الموتى،لا يقدر عليه إلا الله ولكن الوصول إليه على طريق العلم أنه حى في نفس الأمر عزيز فإنا رأينا عصا موسى ـ عليه السلام ـ حية وعصى السحرة حيات ولم تفرق العامة بين الحيات،فلهذا قلنا إن الوصول إلى علم ذلك عزيز» .

ويرى بعض آخر من العلماء: أن ما يدخل تحت قدر العباد أو مثله ربما عرضت فيه الشبهة وحصلت الشكوك للمكلفين فى أنه مما يتم بحيلة من الحيل وسبب من الأسباب[3].

وبصرف النظر عن صحة تفضيل قسم على آخر من هذا الأقسام فما يعنينا هنا هو مبدأ أن المعجزات نسبية في درجة خارقيتها ومن ثم فمن الطبعى أن تختلف وجهات الأنظار في النظر إلى هذه الأقسام،وتفضيل أحدها على الآخر .

والقرآن الكريم يصرح بأن من المعجزات ما هو أكبر من غيره قال تعالى[4] ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ قال الماوردى: [5] «أي نخالف بينها. . .فكان بعضها حجة قاطعة،وبعضها أمارة لائحة». وقال تعالى [6] ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ وقال تعالى:[7] ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ وقال تعالى:[8] ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ اي «ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدلا ولا انصرافا عن الإيمان»[9] وقال تعالى:[10] ﴿وقل

---

(١) انظر القاضي عبد الجبار:شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩ .
وانظر الماوردي: أعلام النبوة ص ٢٦ ، ٢٧ والبغدادي : أصول الدين ص ١٧٦ .
(٢) ابن عربي : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٧٤ . (٣) انظر الباقلانى:البيان ١٤ :٢٠ (٤) الأنعام : ١٠٥ . (٥) الماوردي : أعلام النبوة ص ٥١ ، ٥٢ . (٦) الزخرف : ٤٨ . (٧) النازعات : ٢٠ . (٨) الشعراء : ٤ . (٩) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٥٨٤ . (١٠) النمل : ٩٣ .

الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ فالمعرفة التى لا جدال معها إنما تكون بمجموعة الآيات كالخبر المتواتر، بعكس الآية الواحدة التى هي في مقام خبر العدل الثقة لمن يعرف عدالته ومن لا يعرفها .

وقصة موسى مع السحرة أوضح مثال لهذه النسبية في الدلالة، فهى تؤكد على نسبية الخارقية في المعجزة وأن منها ما قد يمكن أن يراوغ منه بالباطل كمعجزة قلب العصا حية بعكس نتق الجبل مثلا فتصعب المراوغة معه(١)، وتؤكد هذه القصة أيضا على أن إدراك المعجزة، وفهمها نسبى أيضا ففهمها السحرة من أول وهلة ولم يفهمها فرعون إلا من قرائن الأحوال.

وبيان ذلك أنا نجد سحرة فرعون يقولون﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾(٢) بينما قال فرعون﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾(٣)وفرعون أدرك المعجزة بدليل قوله تعالى: ﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾(٤) ولأن عدد السحرة كان عدد تواتر: ﴿يأتوك بكل سحار عليم﴾(٥)وهذا هو منطق التحدى أن يجمع كل سحار عليم. وإذا كانت مصر متقدمه في هذا العلم(علم السحر) في ذلك الوقت فلابد أن يكون عدد السحرة كبيراً جداً ولأنه لم تكن هناك خدعة، وقد تمت المعجزة أمام حشد من الناس في وضح النهار. قال تعالى(٦): ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ . ولأن السحرة كيف يتواطئون مع موسى وسيف فرعون مسلط على رؤوسهم؟ وكيف يكون كبيرهم وهو لم يعش بأرض مصر بل خرج إلى أرض مدين مبكراً ؟

إلا أن فرعون حاول أن يراوغ من هذه المعجزة بالرغم من وضوحها، وإن كان إدراكه قائم على هذه القرائن لا على معرفة حقيقة الفرق بين المعجزة والسحر ففرعون وملئه لو كانوا أدركوا المعجزة من البداية لما قبلوا التحدى، ولما جمعوا السحرة، وحشروا الناس ضحا لأنهم لو كانوا على يقين مما حدث أنه سيحدث لمنعوا ذلك فليس هو في صالحهم أن تكون الغلبة لموسى عليه السلام، وأن يؤمن به السحرة .

وهنا لم يظهر الفرق إلا عند الجمع بين المعجزة والسحر في نفس المكان

---

(١) وفي ذلك يقول تعالى:﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ (الأعراف ١٧١) . (٢)طه : ٧٢ . (٣) الشعراء : ٤٩ ، طه : ٧١
(٤) القصص : ٣٢ . (٥) الشعراء : ٣٧ . (٦) طه : ٥٩ .

والزمان، ولم يحدث ذلك دائما في جميع المعجزات، ولم يدرك الفرق إلا السحرة أما غيرهم فأدركوا صدق موسى بقرائن الأحوال السابقة الذكر .

وبعد وفاة موسى عليه السلام. لو أتي السحرة بعصيهم الآن وقلبوها حيات لأشكل الأمر علينا، وليس معنا عصا موسى التي تبين الفارق بين المعجزة والسحر إلا أنه لما كانت المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية، وكانت كل معجزة حسية مصحوبة بمعجزة معنوية أمكننا معرفة الفارق بين النبي الصادق والمدعي الكاذب بالنظر إلى المعجزة المعنوية .

ويؤكد على مسألة التدرج في المعجزات هذه أن معجزات الأنبياء منها ما لا يكون لغيرهم، ومنها ما يشابه ما يكون لغيرها من الأولياء، ومنها ما يماثل ما يكون للأولياء، ومنها ما يشابه ما يكون للروحانيين في أي دين كصوفية الهنود ورهبان النصارى، بل إن بعضا مما يحسب أنه خوارق حقيقية ليس بخارق حقيقي ولكنه معونة معتادة منه تعالى، وربما وجد بسنة إلهية طبعية .

يقول ابن تيمية إن الكرامات«لا تبلغ . قط إلى مثل معجزات المرسلين . . . ولكن قد يشاركونهم[أي يشارك الأولياء الأنبياء] في بعضها »(١) « فليس كل ما كان من آيات الأنبياء يكون كرامه للصالحين» (٢) ولكن آياتهم صغار وكبار كما قال تعالى: (٣) ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ فلله تعالى آية كبيرة وصغيره، وقال عن نبيه محمد ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾(٤) فالآيات الكبرى مختصه بهم وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين، مثل تكثير الطعام فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين لكن لم يوجد كما وجد للنبي ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير. فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم لكن لا يماثلون في قدره فهم مختصون إما بجنس الآيات كالإتيان بالقرآن وإما بقدرها وكيفيتها كنار الخليل، فإن أبا مسلم الخولاني(٥)وغيره صارت النار عليهم بردا وسلاما لكن لم تكن مثل نار إبراهيم في عظمتها كما وصفوها، فهو مشارك للخليل في جنس الآية كما هو مشارك في جنس الإيمان ومحبته الله وتوحيده، ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا لا

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص٤ . وانظر كذلك الإيجي :المواقف ص ٣٤٦،٣٤٧ .
ومحمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص١٦ . والغزالي :معارج القدس ص ١٥٨ ، ١٦٣ .
(٢) ابن تيمية : النبوات ص ١١٦ . (٣) النازعات :٢٠. (٤) النجم: ١٨ .
(٥) انظر ابن تيمية:مجموعة الفتاوى جـ ١١ ص ٢٧٩ . وابن كثير :البداية والنهاية جـ٦ ص٣٠٢ .

يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله(١)

ولكنى أرى أن من آيات الأنبياء ما يماثل الكرامه من كل الوجوه .

ففي حديث الغلام الذى ترك الساحر وأتى الراهب الذى رواه مسلم يقول ـ ﷺ ـ «وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوى الناس من سائر الأدواء»(٢) وهو ما كان معجزا لعيسى عليه السلام .

وفي الحديث«لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة. . .الخ»(٣) ولم يكن منهم نبى إلا عيسى عليه السلام، وسبق أن دللنا على أن كلامه عليه السلام في المهد كان معجزة

وكذلك ما يروى عن المسيح ومشيه على الماء(٤) فقد جرى مثله للعلاء بن الحضرمى(٥) وورد في الكتاب المقدس على لسان المسيح عليه السلام: «من يؤمن بي فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها»(٦) .

وابن تيمية نفسه الذى منع تماثل المعجزات مع الكرامات وإن أجاز تشابههما فقط يذكر أن «إحياء الموتى اشترك فيه كثير من الأنبياء بل والصالحين» (٧) .

وقد سبق بيان أن تماثل الكرامة والمعجزة لا يطعن في المعجزة .

بل إن من آيات الأنبياء ما يشابه خوارق غيرهم من الرواحانيين، وإن لم يكونوا أولياء.

وكما أن المعجزات درجات والصغرى منها تشابه الكرامة بل تماثلها، بل تشابه خوارق الروحانيين كصوفية الهنود ورهبان النصارى كمعجزة الإسراء مثلا(٨) فكذلك الكرامة درجات والصغرى منها تشابه المعتاد من خوارق السحرة

---

(١) انظر ابن تيمية: النبوات ص ١٩٨، ١٩٩ .
(٢) رواه مسلم:فى صحيحه فى الباب(٧٣) من كتاب الزهد وأحمد فى مسنده جـ٦ ص١٧ .
(٣) أخرجه البخاري:فى صحيحه فى الأنبياء فى الباب(٤٨) ومسلم فى صحيحه فى الباب(٨) من كتاب البر،وأحمد فى مسنده جـ٢ص٣٠٧، ٣٠٨ .
(٤) انظر إنجيل متي الأصحاح الرابع عشر آيه (٢٦، ٣٢).
(٥) انظر ابن تيمية: النبوات ص ٢٦٠.
(٦) إنجيل يوحنا:الأصحاح الرابع عشر آية (١٣) .
(٧) ابن تيمية : النبوات ص ٤٠٤ .
(٨) انظر الملحق رقم (١) .

والروحانيين من صوفية الهنود والرهبان، وغيرهم، وكذا ما يفعله الجن، فيشبه أحيانا الكرامة وإن لم يماثلها كالعفريت الذى قال لسليمان ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ (١) لكن قول الذى عنده علم من الكتاب ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ (٢) لا يقدر عليه العفريت .

ثم إن بعضا مما يحسب أنه من خوارق الأنبياء أو الأولياء ليس بخارق في حقيقته، ولكنه قد يظنه الجاهل بحقيقته أنه خارق حقيقي، وما هو بالخارق الدال على الصدق، ولكنه قد يكون معونة منه تعالى لنبيه، أو وليه، والرسول لم يقل إن كل ما يفعله معجزة لأنه يأكل ويشرب وينام وذلك معتاد وغير معجز وإنما المعجز ما كان خارقا حقيقيا للعادة .

وقد يكون ذلك المظنون خارقا نتيجة لسنة إلهية في الخلق فهو معتاد لمن يأخذ بأسبابه، فهو من جنس ما يفعله السحرة والروحانين والرهبان وربما كان قوله - ﷺ - عن خط الرمل «كان نبى من الأنبياء يخط ، وافق خطه فذاك»(٣) دالاً على ذلك.

ونحن إذا نظرنا إلى المنهج الروحى للأنبياءوالأولياء والرهبان واليوجيين نجد تقاربا وتشابها بين بعض هذه المناهج، وإن اختلفت درجة التشابة من نبى لآخر ومن طريق صوفى لآخر ومن مذهب يوجى لآخر .

ومن ثم فربما كان ذلك التقارب في المنهج هو سبب تلك الخوارق(المجارية) التى قد نجدها عندهم جميعا - لا الخوارق الحقيقية التى تكون من عند الله للأنبياء والأولياء فقط .

يقول ابن عربى:(٤) «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهى لا بمجرد خرق العادة» لأن الولى قد لا يمكنه التفريق بين الخارق الحقيقي والخارق المجارى الذى يحدث بسنة إلهية في الخلق، لمن يأخذ بأسبابه سواء كان صاحبه صالحاً أو فاسقا .

---

(١) النمل : ٣٩ . (٢) النمل : ٤٠ .

(٣) رواه مسلم : فى صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٤ .

(٤)ابن عربى : الفتوحات جـ ٢ ص ٣٦٩ .

ويقرر ابن تيمية أن المشتغلين بالذكر، والفكر، والرياضة، ومجاهدة النفس، وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال مع قلة علمهم، وجهل بعضهم - ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه والبحث فيه حتى لو بات الإنسان متوجها مشتغلا بالذكر والحضور لابد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقة لا يجد ذلك، حتى إن كثيرا من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة، ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد لا سيما إذا كان العابد محتاجا إلى علم كان العالم مشتغل به عن العبادة .

ففي الحديث«إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»(١)، وإن «العلماء ورثة الأنبياء»(٢) وإن«فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»(٣) وغير ذلك من الأحاديث كثير.

فليس كل عمل أورث كشوفا أو تصرفا في الكون يكون أفضل من العمل الذى لا يورث كشفا وتصرفا، فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله كان من متاع الحياة الدنيا، وقد يحصل ذلك للكفار والمشركين وأهل الكتاب(٤) .

ولعله بسنة إلهية في الكون

وإذا أردنا أن نتعرف على بعض ملامح ذلك المنهج المشترك بين بعض الأنبياء والأولياء والرهبان واليوجيين والذى قد يكون هو المسؤول عن حدوث بعض الخوارق غير الحقيقية والتى قد يظنها البعض حقيقة ويخلط بينها وبين المعجزة

---

(١) رواه الطيالسي عن صفوان بن عسال،وابن ماجة فى سننه فى الباب السابع عشر من المقدمة بلفظ مختلف،وأبو داود فى سننه فى الباب الأول من كتاب العلم،والترمذي فى سننه فى الباب التاسع عشر من كتاب العلم والنسائى فى سننه فى باب(١١٢) من كتاب الطهارة وحسنه السيوطي فى الجامع الصغير جـ١ص١٤٥ . (٢) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(١٧) من كتاب العلم،وأبو داود فى سننه فى الباب الأول من كتاب العلم،وابن ماجة فى سننه فى الباب (١٧) من المقدمة والدارمي فى سننه فى الباب (٣٢) من المقدمة،وأحمد فى مسنده جـ٥ ص١٩٦ .

(٣) رواه الترمذي عن أبى أمامة وصححه السيوطي فى الجامع الصغير جـ ١ ص ١٢٤ .

(٤) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٣٩٥ ، ٣٩٨ .

ويتوهم إمكان معارضتها، أو يخلط بينها وبين الكرامة، ويرى نفسه أهلا للإكرام وهو كافر ضال مثلا .

فسنجد بعض ملامح ذلك المنهج المشترك في:

الأخلاق العالية:

يقول تعالى عن نبيه الكريم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [1] ويقول ابن عربي عن الرياضة الروحية عند الصوفية: «والرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق وترك الرعونة وتحمل الأذى» [2] والأخلاق العالية أيضا مشترطه عند الرهبان وكذلك عند اليوجيين [3] بل والسحرة أيضا [4] يقول الرازى: [5] «اجمعوا على أن صاحب هذا العمل [السحر] كلما كان إقباله على أبواب البر والخير أكثر كانت أعماله أكمل، لأن الغالب على طبيعة العالم هو الخير، وأما الشر فمغلوب، فإذا اعتضد عمله بالجانب القاهر الغالب كان ذلك العمل : أكمل وأفضل ».

تطويع النفس:

فالجنيد يجيب السائل. متى يصير داء النفس دواءها ؟ بقوله إذا خالفت النفس هواها، وقال يزيد الرقاشي: إليكم عنى الماء البارد في الدنيا لعلى لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت ، قال: ومتى أصمت؟ قال إذا اشتهيت الكلام، وقال على رضى الله عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا، وكان مالك بن دينار يطوف في السوق، فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبرى فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي ويقول الغزالى: لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات (٦) .

ويقول ابن سينا إن من شروط الرياضة الروحية لدى الصوفية «تطويع النفس

---

(١) القلم : ٤ . (٢) ابن عربي : الأنوار ص ١٦ .

(٣) انظر :ج.تونديريو ،ب رئال: اليوجا سيطرة على النفس والجسم ص ٣١ .

(٤) انظر شروط المعجزة وحديثنا عن اشتراط كونها تقع على يد فاضل خير ص ٤٧ .

(٥) الرازي : النبوات ص ٢٢٢ .

(٦) انظر الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٦٦ ، ٦٨ .

الأماره للنفس المطمئنة لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسى، منصرفة عن التوهمات المناسبة للأمر السفلى »[1] .

ولعل في قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [2] وقوله ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [3] إشارة إلى ذلك .

وعند السحرة واليوجيين كذلك نجد تطويع النفس مشترطا بأن يحب الإنسان ما يكره ويكره ما يحب يقول أحد الكتاب المعاصرين: «وهذه النظرية [وهى أن يحب الإنسان ما يكره ويكره ما يحب] تدعو إلى أن يقوم الإنسان بتطويع رغباته والسيطرة عليها. .وعن طريق تطوع النفس لأي شيء وكل شيء يصبح الإنسان سهلا أي يمكن التأثير فيه. .وفي نفس الوقت يصبح قادرا على التأثير في الآخرين»(٤).

ويقول ابن سينا:[5] «فلا تستبعدن أن يكون لبعض النفوس ملكة يتعدى تأثيرها بدنها وتكون لقوتها كأنها نفس ما للعالم. .لا سيما إذا كانت شحذت ملكتها بقهر قواها البدنية التى لها فتقهر شهوة أو غضبا أو خوفا من غيرها» .

الصيام:

فالأديان السماوية جميعا فرض فيها الصيام يقول تعالى:[6] ﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ ويقول ابن عربى:[7] «واحذر من الشبع ومن الجوع المفرط». وكذلك نجد الصيام عند السحرة واليوجيين(٨) وأصحاب الرياضات الروحية جميعا .

فمما يرويه «د: دى» في مذكراته ـ وهو أحد علماء الروحانيات في العصر

---

(١) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٢٠ ، ٨٢٧ .

(٢) آل عمران : ٩٢ . (٣) البقرة : ٢١٦ . (٤) أنيس منصور : القوى الخفية ص ١٢٣ .

(٥) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٣ ، ٨٩٦ .

(٦) البقرة : ١٨٣ . وانظر نحميا ٩ : ١ وإرميا ٣٦ : ٩ . ومتى ١٧ : ٢١ .

(٧) ابن عربي : الأنوار ص ١٧ .

(٨) انظر Yogi,RamacharaKa : Hatha Yoga p . 59.

الحديث ـ أنه كان يستعد استعداداً روحيا بأن يصوم أسبوعين، لا يذوق فيهما إلا الماء وإلا القليل من السكر قبل أن يقوم بعملية الوساطة الروحية من خلال أحد الوسطاء [١] .

ويقول النسفى عن الحسد وهو نوع من أنواع السحر: «وكانت العين في بنى أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه لم أر كاليوم مثله إلا هلك» [٢] .

وكذلك الحال عند قراء الفنجان إذا علت همتهم [٣] .

الطعام:

فنجد الميل عند أصحاب الروحانيات عموما إلى الأغذية النباتية ، وبعدهم عن الأغذية الحيوانية .

يقول ابن عربى عن النظام الغذائي للصوفى «وتحفظ فى غذائك . . . وإن كن من عير حيوان فإنه أحسن» [٤] .

وذلك «عونا للمريد على السهر للذكر وتلطيفا لكثافته الترابية» [٥] وكذلك الحال عند اليوجيين [٦] .

ويقول الرازى عن الساحر إنه يشترط «أن لا يأكل من الحيوانات ويقتصر على الخبز والملح ونبات الأرض، والسبب فيه أن النفوس البشرية مشغوفة باللذات الجسدانية ، فإذا وصل إليها أقبل عليها وغاص فيها . وانصرف عن الجانب الأعلى وإذا لم يجدها وبقى محروما عنها ، عاد بطبعه إلى الجانب الأصلى والمركز الفطرى » [٧] .

وهذا بالطبع بعكس حال رسولنا ـ ﷺ ـ الذي كان أحب الطعام إليه

---

(١) انظر أنيس منصور : القوى الخفية ص٩٩ . (٢) النسفي : مدارك التنزيل جـ٤ص٣١٤ .
(٣) انظر:أحمد حسين الشاعر :أسرار الفنجان ص١٩ . (٤) ابن عربي : الأنوار ص ١٧ .
(٥) جوده المهدي : النفحات الجودية ص ١٤٢ .
(٦) انظر Yogi Ramacharaka : Hatha Yoga p. 71 .
(٧) الرازي :النبوات ص٢٢٢. وانظر كذلك ج.تونديريوب رئال :اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص٣٢.

اللحم، وكان يقول «هو يزيد فى السمع. وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل»(١).

الطهارة:

ففي القرآن: ﴿وثيابك فطهر﴾ (٢).

ويقول ابن عربى للصوفى:(٣) «فأول ما يجب عليك طلب العلم الذى تقوم به طهارتك وصلاتك».

ويقول الرازى عن الساحر:(٤) «ويجب أن يكون عطر البدن بعيدا عن الأوساخ».

«وتعتبر نظافة الجسد فى المكان الأول»(٥) لليوجى.

العزلة:

يقول ابن عربي للصوفي:(٦) «فلابد لك من عزلة عن الناس» «وليس المراد من ترك الناس ترك صورهم... وإنما المراد: أن لا يكون قلبك، ولا أذنك وعاء لما يأتون به من فضول الكلام، فلا يصفو القلب من هذيان العالم»(٧).

وفي اليوجا: «يجب على الفرد أن يعزل نفسه عن المظاهر الخارجية للأشياء المادية لكى يستطيع السيطرة عليها. وعلى الإنسان أن ينظر إلى الحياة باستقامة وعدل وبدون حزن أو ألم أو افتراء، أو اعتداء وأن يعمل جهده ليتغلب على جهله»(٨).

وكذلك شأن الرهبان دائماً العزلة.

---

(١) أخرجه الترمذي فى الشمائل من حديث جابر: «أتانا النبى ـ ﷺ ـ فى منزلنا فذبحنا له شاة، فقال «كأنهم علموا أنا نحب اللحم» وإسناده صحيح.
(٢) المدثر: ٤.
(٣) ابن عربي: الأنوار ص ١٥.
(٤) الرازي: النبوات ص ٢٢٣.
(٥) ج تونديو ب. رئال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٣١.
(٦) ابن عربي: الأنوار ص ١٥.
(٧) السابق ص ١٦.
(٨) ج تونديو ب. رئال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٣١.

التركيز:

يقول ابن سينا : ان من شروط الرياضة الروحية للصوفى«تنحية ما دون الحق عن مستن الإيثار»(١) .

ويقول الغزالى:(٢)«وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها،وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه،بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب،ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره،بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى» .

ويقول ابن عربى:(٣) «ولا تطلب منه في خلوتك سواه ولا تعلق الهمة بغيره» « واشتغل بذكر الله بأي نوع شئت من الأذكار،وأعلاها الاسم المفرد،وهو قولك الله.الله.لا تزد عليه شئا»(٤) .

«والأقطاب هم الذين ذكرهم «الله» لايزيدون عليه» (٥) .

ويقول الرازى إن من أنواع السحر(السحر المبنى على قوة الوهم وتصفية النفس) ويشرحه بقوله:«إذا أعرضت النفس..عن التوجه إلى سائر الجوانب وبقيت متوجهة إلى غرض واحد..ومطلوب معين:قويت حينئذ قوتها واشتد تأثيرها،فقدرت على إحداث أحوال غريبة في هذا العالم»(٦) .

وفي اليوجا نجد«تشييت الفكر على نقطة واحدة إما شيء أو فكرة أو عن مطلق . . . والتحقق التام مع موضوع التأمل مثلا الله،وهي نوع من الانصهار مع الله،وتوحيد روح الفرد مع المطلق»(٧) .

---

(١) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ص ٨٢٠ ،٨٢٧ .

(٢) الغزالى :إحياء علوم الدين جـ٣ص١٩ . وانظر كذلك كمياء السعادة ص ١٢٥ .

(٣) ابن عربي : الأنوار ص ١٨ . (٤) السابق ص ١٧ .

(٥) ابن عربي : القطب الغوث الفرد ص ١٩ . (٦) الرازي : النبوات ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٧) ج توندريو ب. رثال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٢٩ ، ٣٠ .

انظر كذلك Desmond Dunne: Yoga For Everyone p.p . 96:111

إيقاع التنفس:

ففي اليوجا نجد أن للتنفس إيقاعاً معينا «والإيقاع المدرسى النموذجى هو :

- شهيق : (١) ثانية
- احتفاظ : (٤) ثانية
- زفير : (٢) ثانية
- توقف : (٢ أو ٤) ثانية

ويمكن أن يتغير حسب الأفراد أو يتضاعف» (١) .

وبعض الصوفية يستخدم في التنفس إيقاعا مشابها ففى الطريقة النقشبندية نجد «الذكر بحبس النفس بالنفى والإثبات: (لا إله إلا الله) بعدد وتر على قدر اتساع النفس، بحيث يتلفظ قبل نهايته بـ(سيدنا محمد رسول الله)» (٢) حيث «يلصق [المريد] لسانه بسقف حلقه والأسنان بالأسنان والشفة بالشفة، ويحبس النفس» (٣) .

ثم إن الذكر بالاسم المفرد الله الله، والذى يفضله معظم الصوفية حتى على قراءة القرآن كما سبق من كلام الغزالي ، وابن عربى فيه إيقاع تنفس منتظم وبطئ.

- طريقة الجلوس :

فعند بعض الصوفية نجد أن للجلوس أسلوبا معينا فمن آداب وشروط (ختم الخواجكان)وهو المنسوب إلى الإمام عبد الخالق الخجدوانى . .) الجلوس متوركا عكس تورك الصلاة» (٤) .

واليوجا مشهورة بوضعياتها الجسدية التى تسمح بالتأمل والتركيز بدون جهد(٥) .

---

(١) ج توندريو ،ب. رئال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٤٩ .
انظر كذلك Desmond Dunne: Yoga For Everyone p.p . 79 : 95

(٢) د. جوده المهدي : النفحات الجودية ص ١٤٣ . (٣) السابق ص١٣٥ .

(٤) السابق ٧٥ ، ٧٦ .

(٥) ج توندريو ،ب. رئال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٢٩ ، ٣٠ .
انظر كذلك Desmond Dunne: Yoga For Everyone p.p . 149 : 154

- الحركة الكثيرة :

فالصوفية مغرمون بالحركة، كما هو مشاهد الآن في مجالس ذكرهم، وقد تتخذ هذه الحركة شكلا رأسيا من ركوع إلى قيام إلى ركوع وقد تتخذ شكلا أفقيا في شكل أنصاف دوائر، بل إنها قد تتخذ شكلا دائريا كاملا، كما هو الحال عند الدراويش المولاوية، اتباع جلال الدين الرومى، ويرون أن في ذلك تشبها بالملائكة المهيمون الدائرون حول العرش، ويقولون إن لذلك أصلا من فعل الصحابة .

فقد «وصف علي يوما الصحابة. فقال: كانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في اليوم الشديد الريح »(١) .

وهذا العنف الحركى نجده أيضا عند أصحاب الرياضات الروحية فابن سينا يروى عن قوم من الأتراك «أنهم إذا فرغوا إلى كاهنهم في تقدمة معرفة، فزع هو إلى شد حثيث جدا (عدو مسرع) فلا يزال يلهث فيه حتى يكاد يغشى عليه ثم ينطق بما يخيل إليه» (٢) .

* * * *

وفي النهاية أقول: إن ذلك لا يعنى أن هذا هو المنهج الوحيد لأصحاب الروحانيات، فللصوفية طرق كثيرة ولكل منها منهجها، واليوغا نفسها أنواع كثيرة وليست نوعا واحداً، بل إن منهج الأنبياء الروحى نفسه يختلف من نبى لآخر فمنهم من لم يعاشر أمرأة قط كالمسيح ويحى - عليهما السلام - ومنهم من عاشر الكثير كداود وسليمان - عليهما السلام - «وكثيرون من أصحاب القوى الخفية . . لا يكف عن الخمر أو القمار أو التنقل . . أو انه غارق في الجنس» (٣) .

بل يجعل «بعل شمطوب» (١٧٠٠ - ١٧٦٠) زعيم «الحصيدية» وهي فرقة صوفية يهودية - شعار طريقته «الهبوط من أجل الصعود» فما من سبيل للقضاء على الشهوة إلا باستنفادها وما من علاج للعطش إلا بالشرب .

وعلى نظريته في وحدة الوجود فإن الله موجود في الطعام والشراب والجسد

(١) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم ص ٤١٨ .
(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٨٧ ، ٨٩٠ .
(٣) أنيس منصور : القوى الخفية ص ١٥٤ .

وفي كل شيء مادى، ومن ثم فالممارسات الجسدية عبادة لله بالجسد تهيئ للمرتبة اللاحقة وهى عبادته بالروح (١) .

فليس ما ذكرنا هو المنهج الوحيد لأصحاب الروحانيات ولكنه ربما كان الأظهر .

وهذا الخلط بين المستويات هو ما جعل محمد رشيد رضا لا يرى فرقا بين بعض المعجزات وبين ما يفعله صوفية الهنود والمسلمين والروحانيين عموما إلا أن روحانية الرسول «أقوى وأكمل وأقدس وأفضل» (٢) .

وأقول إنه إذا كان هناك تشابه ما بين معجزات عيسى عليه السلام أو غيره، وخوارق بعض الروحانيين باستثناء الأولياء فليس مرد ذلك إلى الاختلاف بين الرسول أو الولى وهؤلاء في الدرجة الروحية فقط، ولكن مرده وقبل كل شيء إلى اختلاف الطبيعة الروحانية نفسها، وإلا فإن قول، محمد رشيد رضا يصدق فرعون في قوله ﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾ (٣) .

وأما قول رشيد رضا إن روحانيته عليه السلام، لم تكن بعمل كسبى منه (٤) فقد قلنا في شروط المعجزة من قبل إن ذلك غير معتبر .

وإنما الذى يحدث على يد الولى أو النبى ويحدث مثله على يد الروحانيين من السحرة والرهبان واليوجيين وغيرهم، فهو إما ليس معجزا ولا يتحدى النبي به، ولكنه معونة، وليس بخارق حقيقى وإنما حدث بسنة إلهية معروفة للخلق، ولكنه خارق لمن جهل سببه الطبعى. وإما أنه خارق حقيقي وإن لم يفهمه الجميع، فالخارق الحقيقى كما أن منه ما هو أعظم من غيره في درجة خارقيته فهو نسبى في دلالته وفهمه .

وكذلك الحال أيضا في الخوارق غير الحقيقية، فمنها ما هو أعظم من غيره حتى إنه قد يلتبس مع بعض المعجزات عند بعض العوام، فهى نسبية في درجة خارقيتها، وفي فهم الناس لحقيقتها .

---

(١) انظر عبد المنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية ص ١٠٨ : ١٠٩ .

(٢) رشيد رضا : الوحي المحمدي ص١٤٥ ، ١٤٦ . (٣) طه : ٧١ .

(٤) رشيد رضا : الوحي المحمدي ص ١٤٦ .

إلا أنه «كما لا يقدح في الأحجار الكريمة والجواهر الفاخرة ولا ينقص من قيمتها الغالية وجود زيوف تشابهها وتلتبس مع أصولها الحقيقية في أعين الغافلين وأنظارهم. . . . . ، كذلك لا يقدح في آيات الله التى أظهرها على أيدى من أصطفاهم للرسالة إلى الناس وجود مشعوذين من أهل السحر والدجل» (١) .

ومن ثم فإن إيمان الناس بالمعجزات فمبناه على :

- إما إدراك حقيقي للفارق بين المعجزة وغيرها من الخوارق غير الحقيقية، وذلك لا يكون إلا لأهل الاختصاص كسحرة فرعون مثلا .
- وإما عدم إدراك للبس بين الخارق الحقيقي وغير الحقيقي .
- وإما الاقتداء بأهل الاختصاص .
- وإما الثقة بصاحب الخارق لكمال حاله وعلو دعوته .

---

(١) مصطفى صبري : القول الفصل هامش ص ١٠١ .

obeikandl.com

معجزات للأنبياء ليست لأحد سواهم	معجزات للأنبياء تشبه الكرامات ولكن تفوقها	معجزات تماثل الكرامات	معجزات تشبه خوارق السحرة	خوارق قد تحدث علي يد الأنبياء وليست بالمعجزات (خوارق السحرة والروحانيين)
كالقـــرآن	كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام ولأبي مسلم الخولانى	كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص والمشى على الماء	كالإســـراء	كخط الرمل ومعرفة بعض أنواع الغيب ومساعدة الجن
خـــــــوارق حقـــــيقيـــــة				خوارق غير حقيقية مجازية (قد تتعلم)

أقسام المعجزات بحسب درجة خارقيتها للعادة

obeikandl.com

ـ الدلالة بين الإقرار والإنكار:

فهناك من يطعن في المعجزة بالطعن في دلالتها ولهؤلاء عدة شبهات هى :

أ ـ إنكار الدلالة نظرا لعدم الإحتياج إليها في توليد العلم الضرورى :

فإذا كان الله هو الذى يخلق العلم بالصدق بعد وقوع المعجز والله هو الذى أوقع المعجز فما فائدة المعجزة إذن والله قادر على خلق العلم مباشرة دون ما حاجة إلى مناسبة (١) .

والجواب عن ذلك :

أن نقول إن ذلك سؤال عن الحكمة ،والله تعالى لا يسأل عما يفعل،وعدم معرفة الحكمة لا يعنى عدم وجودها،وهذا السؤال مثل سؤال السائل عن الحكمة في خلق الشبع عند الأكل،والله قادر على خلقه بدون أكل. ،وإذا كان عدم معرفتنا للحكمة هنا لا يعنى عدم وجود علاقة بين الأكل والشبع،فكذا الوضع في المعجزة،فعدم معرفتنا للحكمة من تولد العلم الضرورى بالصدق عند المعجزة لا يعنى عدم وجود علاقة بين المعجز والعلم الضرورى بالصدق .

ب ـ إنكار الدلالة نظرا لأن الفرع لا يكون دليلا على الأصل :

يقول المنكرون: «كيف تكون الأعراض دليلا على وجود الله إذا كانت المعجزة تغيرات في الأعراض وجريانها على نحو غير مألوف على الأجسام (٢) فكيف تكون الأعراض وهى مشروطة بالأجسام ولا تستقل بذاتها،دليلا على وجود الجواهر المفارقة؟إن العرض لا يؤدى إلى جوهر،والمشروط لا يؤدي إلى الشارط كما أن الفرع لا يثبت الأصل،والمعجزة فرع والنبوة أصل»(٣) .

وجواب ذلك :

---

(١) انظر حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة جـ٤ ص٧٤ .

(٢) «من فضائح القوطي بقوله بأن الأعراض لا يدل شيء منها على الله تعالى،وكذلك قال صاحبه عباد وزعما أن فلق البحر،وقلب العصا حية،وانشقاق القمر،ومحق السحر والمشي على الماء، لا يدل شيء من ذلك على صدق الرسول في دعواه الرسالة البغدادي :الفرق بين الفرق ص ١١٩ .

(٣) حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة جـ ٤ ص ٨٥ .

أن العكس هو الصحيح فلا فرع بدون أصل والأصل لا يشترط أن يكون له فرع، فوجود الأعراض دليل على وجود الجواهر لأن الأعراض لا تقوم بنفسها .

يقول ابن تيمية: (١) «ولهذا كان الليل إما مساويا للمدلول عليه وإما أخص منه، لا يكون أعم من المدلول ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص كطلوع الشمس والقمر والكواكب لا يدل على صدق أحد ولا كذبه لا مدعى النبوة ولا غيرها، فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق ولكن تدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب وقدرته ومشيئته وحكمته، فإن وجود ذاته وصفاته ثابت سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ولا يلزم من عدمه عدم خالقه» .

ثم إن المعجزات قد توجه إلى الجواهر أيضا على ما استقصيناه في مبحث المعجزة والسحر .

جـ - إنكار الدلالة بدعوى عدم مناسبة الدليل للمطلوب :

فلدايفيد هيوم: «الفيلسوف الإنجليزى» رأي في المعجزات، ينكرها أولا ثم يذهب إلى أنها على فرض ثبوتها لا تصلح للدلالة على مقاصد أصحابها .

وخلاصة رأي هيوم: أن طريقة المعجزة غير طريقة البرهان وأن الحاسب إذا عرف - مثلا - أن مجموع اثنين واثنين أربعة لا تختلف حسبته لأنه يشهد بعد ذلك خارقة من الخوارق .

فالبرهان العلمى أو البرهان المنطقى هو عند دايفيد هيوم البرهان لا سواه الصالح وحده للإثبات وللنفى، والتصديق والتكذيب (٢) .

ولكن كلام هيوم هذا فيه مغالطة لأن إتيان مدعى النبوة بما هو خارق حقيقى لسنن الكون المطردة يدل على أنه مؤيد من الله تعالى - ومن يؤيده الله لا يكذب عليه .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ١٧٥ .

(٢) انظر العقاد : ساعات بين الكتب ص ٢٤ ، ٢٥ . و ابن رشد ص ٦٦ .

وابن رشد قد سبق هيوم وقال نفس كلامه إلا أنه لم يطعن في دلالة المعجزة الحسية، وكذلك الرازى .

يقول ابن رشد: (١) «إن دلالة القرآن على نبوته ﷺ - ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية على نبوة موسى عليه السلام ولا إحياء الموتى على نبوة عيسى وإبراء الأكمه والأبرص، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء، وهي مقنعة عند الجمهور فليست تدل دلالة قطعية إذا انفردت، إذ كانت ليست فعلا من أفعال الصفة التى بها سمى النبى نبيا، وأما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب، ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب، فقال أحدهما الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء(وقال الآخر الدليل أنى)أبرئ هذه المرضى لكان تصديقنا بوجود الطب للذى أبرأ المرضى ببرهان، وتصديقنا بوجود الطب للذى مشى على الماء مقنعا، ومن طريق الأولى والأحرى، ووجه الظن الذى يعرض للجمهور فى ذلك، أن من قدر على المشى على الماء الذى ليس من صنع البشر، فهو أحرى أن يقدر على الإبراء الذى هو من صنع البشر . . . » .

ويقول: (٢) «وما يقع في النفس هو أن من أقدره الله على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته، فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه»

ويقول: (٣) «وليس في قوة العقل العجيب الخارق للعوائد الذى يرى الجميع أنه إلهى أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جهة ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل، والفاضل لا يكذب، بل إنما يدل على أن هذا رسول إذا سلم أن الرسالة أمر موجود، وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يدي أحد من الفاضلين إلا على يدى رسول، وإنما كان المعجز ليس يدل على الرسالة لأنه ليس يدرك العقل ارتباطا بينهما إلا أن يعترف أن المعجز فعل من أفعال الرسالة كالإبراء الذى فعل من أفعال الطب » .

ويقول: (٤) «إن المعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة وأما المعجز في غير ذلك من الأفعال فشاهد لها ومقو» .

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٩ .

(٢) السابق ص ١٢٠ . (٣) السابق ص ١١٢ . (٤) السابق ص ١١٦ .

ويقول الرازي: (١) «إن التمسك بطريق المعجزات من باب الاستدلال بالأثر على المؤثر على سبيل الإجمال فإنا نعرف بظهور المعجز عليه ـ عليه السلام ـ كونه مشرفا عند الله على سبيل الإجمال من غير أن نعرف كيفية ذلك الشرف» .

وعلى هذا فابن رشد والرازى وغيرهما، وان اتفق معهم هيوم في عدم مناسبة دلالة المعجزة الحسية للمطلوب إلا أنه اختلف معهم فى إنكار دلالتها، فهى عندهم وإن لم تناسب المطلوب مباشرة إلا أنها تدل على الصدق من حيث :

«إن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» وهو «مشرف عند الله» وبالطبع من يشرفه الله لا يكذب عليه ـ وذلك لأن« من أقدره الله على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه» .

فالمعجزات الحسية وإن لم تدل دلالة قطعية إلا أنها «شاهد. . .ومقو» على الصدق وأما الدلالة القطعية ففي [illegible] الداعية وقيمة الدعوة. أو على حد تعبير ابن رشد «في العلم والعمل» .

وبالتالي فكلام ابن رشد هنا لا يتعارض مع الشرع كما قد يتوهم بعض الباحثين، وخاصة أنه لم ينكر دلالة المعجزة الحسية على الصدق، وإن فضل عليها دلالة المعجزة المعنوية، وقد قلنا من قبل إن دلالة المعجزة نسبية .

د ـ إنكار الدلالة نظرا لإحتمال كون المعجزة ابتداء أو تكرير لعادة متباعدة :

يقول المنكرون: إنه لا شك أن هذه الحوادث المعتادة: منتهية إلى أول وإلا لزم القول بحدوث حوادث لا أول لها، وذلك يوجب قدم العالم، وقدم العالم يقدح فى إثبات الفاعل المختار، والقدح في الفاعل المختار يمنع من القول بصحة النبوة، فثبت أنه لابد من الاعتراف بوجوب انتهاء هذه الحوادث المعتادة إلى أول ومبدإ .

وحدوث كل واحد منها في المرة الأولى يكون على خلاف العادة، ثم إنه

---

(١) الرازي : النبوات ص ١٨٤ .

تعالى جعل ذلك دائما مستمرا فيما بعد ذلك، لأن الثابت من الأزل إلى ذلك الوقت الأول هو العدم المستمر .

وإذا ثبت هذا فنقول: لعل هذا الذى حدث الآن: ابتداء عادة مستمرة بعد ذلك ولا يقال إنا لما شاهدنا أن هذا الخارق لم يحدث بعد ذلك، علمنا أن حدوثه ليس لأجل أنه ابتداء عادة فلعل المعجز إنما كان لأجل أنه ابتداء أو تكرير لعادة متباعدة .

لأن العادات قد تكون متكررة فى أزمنة متقاربة وقد تكون متكررة في أزمنة متباعدة[1]، مثل أن العادة جارية بحدوث الصيف في كل سنة مرة واحدة وأن الكواكب الثابتة تنتهى إلى أول برج الحمل في كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة، فلعل هذا الحادث الذى حدث، إنما حدث لأنه ابتداء أو تكرير لعادة متطاولة متباعدة .

والجواب عن ذلك :

أن نقول: لو قال نبي آتى أن يقلب الله عادة معتادة ويطرد نقيضها لكان ذلك أحق المعجزات بالدلالة على النبوءات (٢) وسيأتي مزيد جواب عن ذلك في نهاية هذا الباب.

هـ - إنكار الدلالة نظرا لإحتمال كون المعجزة لنبي آخر:

يقول المنكرون لعل المعجز «إنما حدث معجزة لنبى آخر أو كرامة لولى آخر في طرف آخر من أطراف العالم فاتفق كلام هذا الكاذب ودعواه في ذلك الوقت، فحدث هذا المعجز على وفق دعواه لهذا السبب»(٣) .

---

(١) وبهذا المنطق حاول سبينوزا نفي المعجزات مستشهدا على ذلك بما ورد في سفر الجامعة :«ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس جديد إن وجد شيء يقال عنه انظر هذا جديد فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا ليس ذكر للأولين . والآخرون أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم الجامعة ١ / ٩ ـ ١١ ، وانظر سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٨ .

(٢) انظر الجويني : الإرشاد ص ٢٦٣ .
الرازي : النبوات ص ١٢٠ ، ١٢٨ . والأربعين جـ ٢ ص ١٠٢ .

(٣) الرازي : النبوات ص ١٢١ .

والجواب عن ذلك :

أنا نطرح تساؤلاً وهو: كيف يريد الله تعالى تصديق الصادق وفي نفس اللحظة تصديق الكاذب في الجانب الآخر من الأرض ؟ فإن ذلك يتعارض مع حكمته تعالى .

على أن هذا الادعاء يكاد ألا ينطبق إلا على هذه المعجزة السماوية التى يراها نصف سكان الأرض في آن واحد، كانشقاق القمر. ولا ينطبق على المعجزات الأخرى، وحتى السماوية منها كإنزال المطر مثلا لأنها لا تكون إلا في مكان محدود يمكن للمتحدين بها أن يتبينوا حقيقة ما إذا كان ذلك المعجز لهذا المدعى، أم لمدع آخر .

كما أن انشقاق القمر كان بإشارة منه ـ ﷺ ـ بناء على طلبهم ـ هم ـ أن يريهم آية (١) .

و ـ إنكار الدلالة: نظرا للطعن في طريق معرفة الرسول أنه رسول :

يقول المنكرون: لم نجد وجها من قبله يصح تلقى الرسالة عن الخالق، جل ذكره، وذلك أنه ليس ممن يدرك بالأبصار ويشاهد بالحواس فيتولى مخاطبة الرسول بنفسه وإنما يدعى الرسول العلم بالرسالة من جهة صوت يسمعه أو كتاب يقع إليه أو سماع شخص ماثل بين يديه يذكر أنه بعض ملائكة ربه فما يدريه لعل صاحب ذلك الصوت ومكلمه بعض الجن أو مستتر عنه من الإنس أو بعض السحرة والمخيلين (٢) .

والجواب عن ذلك من وجوه :

منها أنه تعالى قد يخلق اليقين فى نفس النبى

ـ وقد يكون ذلك عن طريق المعجزة المعنوية أي مجموعة قرائن الصدق التى تعود إلى طريقة التبليغ(٣) وإلى موضوع الدعوة وغير ذلك. وهو ما استدل به ورقة

---

(١) انظر البخاري: فى صحيحه فى باب (١) من تفسير سورة القمر وفى باب (٢٧) من كتاب المناقب. ـ ومسلم فى صحيحه رقم (٤٦) من كتاب المنافقين وأحمد جـ ٣ ص ٢٠٧ . ٢٢٠ .

(٢) انظر الباقلاني : التمهيد ص ٩٩ .

(٣) ولذلك كما يقول ابن عربى كان كلام الله تعالى لموسى من الشجرة من جانب الطور الأيمن له لأنه =

بن نوفل على نبوة رسولنا - ﷺ - صحيح أنه في أول نزول الوحى إنما نزل عليه - ﷺ - بضع آيات قلائل لكنها كانت كافية في التعبير عن موضوع الدعوة .

ويروى أن ورقة بن نوفل قال لخديجة رضى الله عنها :اذهبى إلى المكان الذي رأى فيه ما رأى فإذا رآه فتحسرى فإن يكن من عند الله لا يراه، فلما تحسرت تغيب جبريل فلم يره، فرجعت فأخبرت ورقة فقال إنه ليأتيه الناموس الأكبر (١) .

لأن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجنى. .

- وقال بعض العلماء إن معرفة الرسول كونه رسولاً مؤسسة على نفس معجزته الحسية التى يعرف بها قومه نبوته (٢) ومن ذلك ما ورد فى سفر القضاة على لسان جدعون: «فاصنع لى علامة أنك أنت تكلمنى» (٣) .

وأرى أن المعجزة الحسية أليق بالعوام وعليها تأسيس إيمانهم ولا يؤسس الخواص إيمانهم عليها بل هي بالنسبة لهم تزيده وتزكيه ولا تؤسسه والرسل خواص وليسوا بعوام .

فإبراهيم عليه السلام يقول ﴿ربى أرنى كيف تحى الموتى﴾ ويقول ﴿ليطمئن قلبى﴾ وكان جوابه عندما قال الله تعالى له ﴿أو لم تؤمن .قال بلى﴾ (٤) فإيمانه سبق طلبه المعجزة .

وموسى عليه السلام عندما سمع خطاب الله تعالى الذى ليس كمثله شىء لم يكن في حاجة إلى معجزة حسية لتأسيس إيمانه بل كانت حاجته لزيادة إيمانه .

ورسولنا - ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد عن أنس: قال :جاء جبريل إلى رسول الله - ﷺ - ذات يوم وهو جالس حزين، قد خضب بالدماء من ضرب بعض أهل مكة، قال فقال له: مالك؟ فقال: فعل بى هؤلاء وفعلوا قال: فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟قال: فقال: نعم قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادى فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها. قال: فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه. فقال مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها . فقال رسول الله - ﷺ - حسبى»(٥) .

= لو كلمه من الأيسر الذى هو جهة قلبه ربما التبس عليه بكلام نفسه فجاءه الكلام من الجانب الذى لم تجر العادة أن تكلمه نفسه منه - انظر الفتوحات جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(١) انظر الحلبى : إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون جـ ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) انظر الباقلانى : التمهيد ص ١٠١ . والماوردى : أعلام النبوة ص ٣٠ . (٣) سفر القضاة: ٦: ١٧

(٤) البقرة : ٢٦٠ . (٥) رواه أحمد:فى مسنده جـ٣ص١١٣ وابن ماجه فى سننه في الباب(٢٣) من كتاب الفتن والدارمي فى سننه فى الباب (٤) من المقدمة .

فإيمانه ـ ﷺ ـ لم يؤسس على المعجزة الحسية لأن المعجزة الحسية للخواص تزيد إيمانهم ـ والإيمان يزيد ـ ولا تؤسسه كما هو شأن العوام .

ونفس الشيء يقال عن الإسراء والمعراج لا سيما المعراج فهى معجزة حسية خاصة به ـ ﷺ ـ ولم يرها أحد من البشر فكان هدفها طمأنته ـ ﷺ ـ وتقوية إيمانه بالله تعالى .

وأما قوله ـ ﷺ ـ بعد فعله بعض من معجزاته«أشهد أنى رسول الله» فهو من هذا الباب أيضا لأنه كان قد آمن من قبل ذلك بوقت طويل كما توضح ذلك كتب السير .

ـ وقد تكون معرفة الرسول كونه رسولا بأن يخاطبة تعالى بلا واسطة «وكلام الله سبحانه ليس من جنس كلام الآدميين ولا مشبها لكلام المخلوقين. . . . وإذا كان ذلك كذلك علم من تولى الله خطابه أن المتكلم له بما سمعه هو القديم الذى ليس كمثله شيء (١) .

كما حدث مع آدم عليه السلام. وكما حدث مع موسى عليه السلام ـ وإن أكد ذلك سبحانه ببعض المعجزات الحسية كحل العقدة من لسانه عليه السلام واليد البيضاء، وقلب العصا حية.

ـ ومن هذه الطرق التي بها يعرف النبى أنه نبى أن تصح نبوة بعض الأنبياء بأحد هذه الطرق ثم يقول ذلك النبى لآخر إن الله قد أرسلك إلى قوم بأعيانهم، فيعلم أنه رسول الله بقول رسول آخر ومثاله رسالة لوط إلى قومه على لسان إبراهيم وكذا رسالة هارون مع موسى ـ عليهم السلام .

وقد يمهد للنبى بنبوته عن طريق الإرهاصات .

فقد روى الشعبى وداود بن عامر أن الله تعالى قرن إسرافيل بنبوة رسوله ـ ﷺ ـ ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء بعد الشيء ولا ينزل عليه بالقرآن، فكان في هذه المدة مبشرا بالنبوة وغير مبعوث إلى الأمة (٢) .

---

(١) الباقلاني : التمهيد ص ١٠٠ .

(٢) الماوردي: أعلام النبوة ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومن الإرهاصات الرؤيا المنامية المتكررة حتى يستبعد بطلانها وخاصة أن الأنبياء ممن تصدق رؤياهم كما يصدق حديثهم .

قال - ﷺ «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا »(١) .

وقال - ﷺ - «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»(٢) .

ويقال إن ذلك لأنه - ﷺ - كانت مدة دعوته ثلاثه وعشرون عاما وكانت مسبوقة بستة أشهر من الرؤيا الصالحة .

وروى البخاري في صحيحه «أنه أول ما بدئ به - ﷺ - من الوحى الرؤيا الصالحة» (٣) .

وعن علقمة بن قيس «أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام»أي ما يكون في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل عليهم الوحى (٤) .

ز- إنكار الدلالة نظرا للطعن في قياس الغائب على الشاهد :

لقد ضرب المتكلمون مثلا في كيفية دلالة المعجزة على الصدق بأن قالوا: «إذا ادعى الرجل بمشهد الجم الغفير أني رسول هذا الملك إليكم، ثم قال للملك إن كنت صادقا فخالف عادتك، وقم من الموضع المعتاد لك من السرير، واقعد بمكان لا تعتاده، ففعل: كان ذلك نازلا منزلة التصديق بصريح مقاله، ولم يشك أحد في صدقه» (٥) .

فإن قيل: فبم تردون الغائب إلى الشاهد، مع العلم بأنه لابد من جامع بينهما.

وفي الشاهد قد نكون عارفين بأحوال ذلك الملك وبأخلاقه ومناهج أفعاله،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٦) من كتاب الرؤيا والترمذي فى سننه فى الباب الأول والعاشر من كتاب الرؤيا . (٢) رواه البخارى فى صحيحه جـ ٩ ص ٣٩ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه جـ ١ ص٣ ،ص ٣٧ .

(٤) الحلبى : إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٥) الإيجي : المواقف ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

فلا جرم يمكننا أن نعرف أنه إنما فعل ذلك الفعل لأجل ذلك الغرض .

وأما أنواع حكم الله تعالى فليس لأحد سبيل إلى معرفتها، ولا قدرة لأحد على الاطلاع عليها .

وجواب ذلك :

أنه ليس المقصود من ذكر المثال في الشاهد هو الاستدلال به والقياس عليه ولكن المقصود هو التقريب والإيضاح فإن هذا الأمر من قبيل الضروريات التى لا يستدل عليها ولكن تضرب فيها الأمثال (١) .

ويضيف ابن رشد مطعنا آخر في مثال الملك السابق فيقول: (٢) ويظهر في الشاهد أنه إذا قام الرجل في حضرة الملك فقال: أيها الناس إني رسول الملك إليكم وظهرت عليه علامة من علامات الملك يجب أن يعترف بأن دعوى ذلك الرسول صحيحة، وقالوا هذه العلامة ظهور المعجزة على يدى الرسول، وهذه الطريقة هي مقنعة وهى لائقة بالجمهور بوجه ما لكن إذا تتبعت ظهر فيها بعض اختلال وذلك أنه ليس يصح تصديقنا للذى ادعى الرسالة عن الملك إلا متى علمنا [أن] تلك العلامة التى ظهرت عليه هي علامة الملك للرسل، وذلك إما يقول الملك لأهل طاعته ان من رأيتم عليه علاماتى المختصة بى فهو رسول من عندى، أو بأن يعرف من عادة الملك أن لا تظهر تلك العلامات إلاعلى رسله. وإذا كان هذا هكذا فلقائل أن يقول: من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدى بعض الناس هى العلامات الخاصة بالرسل، فإنه لا يمكن أن يدرك هذا بالشرع، لأن الشرع لم يثبت بعد، والعقل أيضا لا يمكنه أن يحكم أن هذه العلامة هي خاصة بالرسل، إلا أن يكون قد إدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ولم تظهر على أيدى سواهم » .

---

(١) انظر الرازي : الأربعين جـ٢ص١٠٧ ، ١٠٨ . والإيجي : المواقف ص ٣٤١ .
والجويني : الإرشاد ص ٢٧٦ .

(٢) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٠٩ .

إلا أن كلام ابن رشد هذا وإن كان يمثل طعنا في مثال الملك السابق إلا أنه لا يمثل طعنا في دلالة المعجزة على الصدق فابن رشد هو القائل:[1] «وليس في قوة العقل العجيب الخارق للعوائد الذى يرى الجميع أنه إلهى أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جهة ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل و الفاضل لا يكذب، بل إنما يدل على أن هذا رسول إذا سلم أن الرسالة أمر موجود وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يدى أحد من الفاضلين إلا على يدى رسول، وإنما كان المعجز ليس يدل على الرسالة لأنه ليس يدرك العقل ارتباطا بينهما، إلا أن يعترف أن المعجز فعل من أفعال الرسالة كالإبراء الذى هو فعل من أفعال الطب» .

جـ - إنكار الدلالة نظرا لأن الدوران لا يدل على العلية :

يقول المنكرون: إن الفعل الخارق للعادة يدل على الصدق عند حصول شرط زائد، وهو كون ذلك المعجز دائرا مع تلـ ـ ـدعوى وجودا وعدما، إلا أنا نقول: إن العقلاء أطبقوا على أن الدوران مع الشيء لا يفيد العلية إفادة قطعية واختلفوا في أنه هل يدل على حصول العلية دلالة ظنية أم لا ؟ [2].

وسيأتي جواب ذلك في نهاية هذا الباب .

هـ - إنكار الدلالة نظرا لإحتمال علم المدعو المسبق بالخارق :

يقول المنكرون: «لعل هذا النبى كان قد علم إما بواسطة علم النجوم، أو بواسطة علم الرمل أو بواسطة تعبير الرؤيا: أن الحادث الفلانى الخارق للعادة سيحدث في اليوم الفلانى، والناس كانوا غافلين عنه، ثم إنه فى ذلك اليوم: ادعى حدوث ذلك الحادث المعجز، فلما حدث على وفق دعواه، ظن الناس أنه إنما عرفه بإلهام الله تعالى وإخباره»[3].

وسيأتى الجواب عن ذلك في نهاية هذا الباب .

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٢ . (٢) انظر الرازي : النبوات ص ١٢٨ .

(٣) الرازي: النبوات ص ١٢١ . وانظر كذلك الأربعين جـ١ ص ١٠٠ .

٥ - إنكار الدلالة بدعوى أن دلالة المعجزة ظنية تحتمل التأويل :

يقول المنكرون: «إن أقصى ما في الباب: أنكم تقولون إن المعجز قائم مقام التصديق بالقول، فنقول: هب أنه كذلك [. . .و] أن الرجل قال: فلان رسولي إليكم، فهذا كلام يحتمل التأويل ويمكن صرفه عن ظاهره بالدليل، وإذا كان كذلك، لم تكن دلالة هذا القول على ثبوت هذا المعنى دلالة قطعية، بل كانت دلالة ظنية، فثبت: أن دلالة هذا اللفظ على حصول النبوة دلالة ظنية، وثبت: أن أقصى مراتب المعجزات أن تكون قائمة مقام هذا اللفظ على حصول النبوة، فبأن تكون دلالة المعجز على التصديق دلالة ظنية كان أولى»[1].

وسيأتي الجواب عن ذلك أيضا في نهاية هذا الباب .

٦ - إنكار الدلالة نظرا للطعن في اشتراط عدم المعارضة :

يرى المنكرون أن: دلالة المعجز على الصدق لو حصلت لكانت إما أن تكون مشروطة بعدم المعارضة، أولا تكون مشروطة به، والقسمان باطلان، فبطل القول بدلالة المعجز على الصدق .

وإنما قلنا: إنه لا يمكن أن تكون هذه الدلالة مشروطة بعدم المعارضة، لوجوه:

الأول: أنه إما أن يكفي في كون المعجز معجزا: عدم المعارضة في الحال، أو المعتبر عدم المعارضة أبداً أو المعتبر عدم المعارضة في مرتبة بين المرتبتين المذكورتين، والأقسام الثلاثة باطلة .

أما عدم المعارضة في الحال فإنه لا يكفي في كون الفعل معجزا فكم من إنسان يأتي بعمل فلا يقدر الحاضرون في الحال على معارضته مع أنه لا يكون ذلك العمل معجزا بالاتفاق .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون الشرط في كونه معجزا عدم المعارضة أبدا فهذا الشرط مجهول، فمن الذي يمكنه أن يعلم أن أحدا من الواردين بعده إلى قيام القيامة لا يمكنه الاتيان بهذه المعارضة ؟وإذا صار هذا الشرط مجهولاً صار

---

(١) الرازي : النبوات ص ١٢٨ .

المشروط أيضا مجهولاً فوجب أن تصير المعجزات بأسرها مجهولة .

أما القسم الثالث: وهو المرتبة المتوسطة بين المرتبتين المذكورتين، فنقول: إن تلك المراتب المتوسطة كثيرة متفاوتة، وليس اعتبار بعضها أولى من اعتبار البواقى، فكان اشتراط واحدة وإلغاء البواقى محض التحكم، وهو باطل .

فثبت أن اشتراط عدم المعارضة ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة، وثبت أنها بأسرها أقسام باطلة، فكان القول باعتبار عدم المعارضة باطلا .

والوجه الثانى في فساد هذا القسم: ان المعتبر عدم المعارضة من الحاضرين فقط أو من جميع أهل الدنيا، أو المعتبر مرتبة متوسطة وإبطال هذه الثلاثة بمثل الكلام الذى ذكرناه في الوجه المتقدم معلوم .

والوجه الثالث أن العدم نفى محض، فيمتنع أن يكون امتيازا عن غيره بوجه من الوجوه وإذا لم يحصل فيه الامتياز، امتنع كونه دليلا، ولا جزء دليل، لأن أقرب مراتب الدليل المخصوصة امتيازه عما سواه .

وأما القسم الثانى: وهو أن يقال: إن دلالة المعجز على الصدق غير مشروطة بعدم المعارضة، فهذا القسم ظاهر الفساد والبطلان، فثبت بما ذكرنا: فساد القسمين، وثبت بفسادهما: أن المعجز لا يمكن أن يكون دالاً على الصدق(١) .

وسيأتى الجواب عن ذلك في نهاية هذا الباب .

ل - إنكار الدلالة نظرا للقول باشتراك أجسام هذا العالم العنصرى في الهيولى القابلة لجميع الصور:

فيرى المنكرون: أنه إذا كانت أجسام هذا العالم العنصرى مشتركة في الهيولى، وتلك الهيولى قابلة لجميع الصور، فاختصاص كل واحد من هذه الأجسام بصفته المعينة وصورته المعينة إما أنا يكون لأجل أن ذلك الجسم كان أولى بقبول تلك الصفة والصورة من سائر الأجسام، أو لا يكون كذلك، والثانى باطل، ولزم منه أن يكون اختصاص ذلك الجسم بتلك الصفة مع كونه مساويا لسائر الأجسام في

---

(١) انظر السابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

القبول وفي عدم الأولوية يكون رجحانا لأحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ولما بطل هذا التقسيم ثبت أن القسم الأول حق، ومن ثم فاختصاص ذلك الجسم بذلك الاستعداد الخاص لابد وأن يكون لأجل استعداد آخر إلى غير نهاية، فتلك الاستعدادات إن حصلت دفعة واحدة، لزم حصول أسباب ومسببات لا نهاية لها دفعة واحدة وهو محال، وإن حصلت على سبيل التعاقب وهو أن يكون كل استعداد سابق علة لحصول الاستعداد اللاحق، فحينئذ يكون حصول هذا المعجز المعين ـ الذى هو خارق للعادة ـ من لوازم الأحوال السالفة التى لا أول لها وحينئذ تخرج المعجزات عن كونها دالة على الصدق .

أي أنه إذا كان ذلك الجسم مساويا لسائر الأجسام وكان ذلك الوقت مساويا لسائر الأوقات، في قبول ذلك الحادث المعين، فحينئذ قد ترجح الممكن لا لمرجح، وإذا جاز هذا، فلم لا يجوز حدوث المعجز لا لغرض أصلا ؟ وذلك يبطل القول بدلالة المعجز على الصدق .

وأيضا: إما أن يتوقف حدوث ذلك الحادث على كون ذلك الجسم موصوفا بذلك الاستعداد الخاص، فحينئذ يكون حدوث هذا المعجز من لوازم الأحوال السالفة، وعلى هذا التقدير فإنه يخرج عن كونه دليلا على صدق المدعى [1] .

وجواب ذلك: أن إرادة الله تعالى وحكمته هي المرجح لأحد طرفي الممكن على الآخر .

وسيأتى مزيد جواب عن ذلك في نهاية الباب .

م ـ إنكار الدلالة نظرا لمذهب المتكلمين في التنزيه وفي الأغراض والمقاصد الإلهية :

فكثير «من المتكلمين يقولون: لابد أن تتقدم المعرفة أولا بثبوت الرب وصفاته التى يعلم بها أنه هو، ويظهر المعجزة وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول فضلا عن وجود الرب »[2] .

وقالوا إن الفعل إما أن يتوقف على الدواعى أو لا يتوقف فإن توقف الفعل

---

(١) انظر السابق ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٣٧٨ .

على الدواعى فهي كثيرة ولا نحيط بها علما، فقد تكون المعجزة امتحانا لعقول المكلفين مثلا، وليست دليلا على الصدق، وتوقف الفعل على الدواعى يلزمنا القول بالجبر فصدور الفعل منا يتوقف على حصول الدواعى لنا، وحدوث الدواعى يكون من الأسباب العالية، وحينئذ تكون جميع القبائح الصادرة من العباد معلولة وموجبة عن فعل الله تعالى لأنه هو الذى فعل القدرة والداعية وفاعل السبب فاعل للمسبب، فحينئذ يكون فاعل جميع القبائح هو الله تعالى وتقدس، وإذا ثبت هذا فحينئذ لا يمتنع من الله تعالى إظهار المعجز على يد الكاذب لأن فعل ما يفضى إلى الجهل ليس بأعظم من فعل الجهل وعلى هذا التقدير فإنه لا يبقى المعجز دليلا على الصدق على القسم الأول .

وأما القسم الثانى: وهو أن صدور الفعل عن القادر لا يتوقف على اضمام الدواعى إليه، فنقول: فعلى هذا التقدير لا يمتنع أن يقال: إنه تعالى خلق هذا المعجز لا لشىء من الدواعى والأغراض أصلا، وإذا كان هذا الاحتمال قائما امتنع القطع بأنه تعالى ما خلق هذا المعجز إلا لغرض تصديق المدعى [1].

وقبل الإجابة عن ذلك أشير إلى أن :

- قضية «الجبر» قضية خلافية ولا يتسع المقام هنا لبحثها، فلنعتبرها مسلمة، ولن ينبنى عليها الطعن المزعوم في دلالة المعجزة، كما سيتضح فيما بعد .

- إن «الأمة قد أجمعت على أن الله لا يفعل القبيح ولا يترك الواجب، فالأشاعرة من جهة أنه لا قبيح منه ولا واجب عليه، وأما المعتزلة فمن جهة أن ما هو قبيح منه يتركه، وما يجب عليه يفعله» [2].

إلا أن المشكلة ما زالت قائمة، فهناك من الأشياء ما يُحكم عليه بالقبح كالمعجزة مثلا إذا خلقت على يد الكاذب، بصرف النظر عما إذا كان ذلك القبح غير معتبر لأنه لحكمة - وإن لم نعرفها - كما قال المعتزلة لأن الله لا يخلق القبيح أو كان هذا القبح غير معتبر لأن الله تعالى لا يقبح منه شئ ولا يجب عليه شىء كما قال الأشعرية .

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١١٨ . وانظر كذلك الأربعين جـ ٢ ص ١٠١ .

(٢) الإيجى : الموقف ص ٣٢٨ .

تفصيل الجواب عن كل ما سبق .

١ ـ إنه لا يقبح منه تعالى إظهار الخوارق غير الحقيقية على يدى الكاذب وإن أوهم ذلك تصديقه، لأن إلقاء الشبهات غير قبيح، فله من الحكم ما يغيب عن كثير من الناس، كأن يكون ذلك مثلا اختبارا من الله تعالى لعبادة، ولو جزم المكلف أن الغرض من هذه الشبهات هو تصديق مدعى النبوة لكان التقصير منه لا من الله حيث جزم لا في موضع الجزم .

بل إنا نشاهد أن إلقاء الشبهات سنة إلهية فهو سبحانه أبقى إبليس وجنوده وأمات الأنبياء وكان أشد الناس بلاء كما يقول الرسول ـ ﷺ ـ « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه » (١) .

٢ ـ ثم إن تجويز إضلال طائفة معينة ليس هو مثل إضلال العالم كله ورفع ما يعرف به الحق من الباطل، بل مثال هذا مثل من قال إذا جاز أن يعمى الله طائفة من الناس جاز أن يعمى جميع الناس، فلا يرى أحد شيئا وإذا جاز أن يميت بعض الناس جاز أن يميتهم كلهم في ساعة واحدة وأن يقال إذا جاز أن يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق جاز أن يضله عن قبول كل حق حتى لا يصدق أحداً في شيء، ولا يقبل شيئا مما يقال له فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس، ولا ينام، وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما .

وآيات الأنبياء هي من هذا الباب، فلو لم يميز الله بين الصادق والكاذب لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته ويأمرون بما أمر به، من أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن كذبهم شقى في الدنيا والآخرة وآخرون كذابين يبلغون عنه ما لم يقله، ويأمرون بما نهى عنه، ومن اتبعهم شقى في الدنيا والآخرة، ولم يجعل سبيلا إلى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء وهذا أعظم من أن يقال إنه خلق أطعمة نافعة

---

(١) رواه الترمذي في سننه في الباب (٥٧) من كتاب الزهد والبخاري في صحيحه في الباب (٣) من كتاب المرضى وابن ماجه في سننه في الباب (٢٣) من كتاب الفتن والدارمي في سننه في الباب (٦٧) من كتاب الرقاق وأحمد في المسند جـ ١ ص ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥ جـ ٦ ص ٣٦٩ .

وسموما قاتله، ولم يميز بينهما، بل كل ما أكله الناس جاز أن يكون من هذا وهذا[1] وهذا كله معلوم بطلانه واستحالته عادة .

٣ ـ ثم إن الرسالة ابتداء نصب وتولية وتفويض و لا يتصور الكذب في التفويض، وإنما يتصور في الأخبار .

فالملك وإن نقم عليه كذب وخلف إن قال لشخص وكلتك في أمرى، فهذا توكيل وإن كان بصيغة الماضي إلا أن الغرض منه أمر والأمر لا يدخله الصدق والكذب ومن ثم فهذا موقف لا يتوقف ثبوته على نفى الكذب عن البارى تعالى[2].

ثم إن الوعد والوعيد وإن كانا خبرين منه تعالى فإن دخلهما الكذب لم يوثق بهما، ولم يكن للبارى أمر مطاع ولا تعقل الإلهية ممن لا يتصور منه الأمر والنهى .

وقد دلت الأدلة على كونه تعالى إلّهاً قادرا عالما. ومن ثم يبطل احتمال دخول الكذب في وعده ووعيده تعالى أيضا (٣) .

٤ ـ والمعجزة نازلة منزلة قوله صدقت وأنت رسول فالجمع بين كونه كاذبا، وبين ما ينزل منزلة قوله أنت رسولى محال، لأن معنى كونه كاذبا أنه ما قيل له أنت رسولى ومعنى المعجزة أنه قيل له أنت رسولى (٤) .

٥ ـ وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول: طريق الحكمة الإلهية، وطريق القدرة، وطريق سنته تعالى وعادته التى بها يعرف أيضا ما يفعل وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وكلها طرق صحيحة، وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجود، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج كان به أجود .

---

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) انظر الجوينى : الإرشاد ص ٢٧٩ . و الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) انظر أبو إسحاق : الجامع : نقلا عن الإرشاد للجوينى ص ٢٨٠ .

(٤) انظر الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٥ .

وأما قدرته تعالى على تعريف الخلق بنبيه فإنه إذا كان قادراً على أن يهدى الإنسان الذى كان علقة ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق إنعاما عليه وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه، فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه، وهذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه والتعريف بهذا دون تعريف الإنسان ما عرفه من أنواع العلوم فإنه إذا كان هداهم إلى أن يعلم بعضهم صدق رسول من أرسله إليه بشر مثله بعلامات يأتي بها الرسول وإن كان لم تتقدم مواطأة، وموافقة بين المرسل، والمرسل إليهم .

فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولا ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله، وهذا كمن جعل غيره قديرا عليما حكيما فهو أولى أن يكون قديراً عليما حكيماً (١)

٦ ـ و يمكن تقدير كونه سبحانه منزها عن تأييد الكاذب بالمعجزات بما علم في مصنوعاته من الإحكام والإتقان أنه عالم، وبما فيها من التخصيص أنه مريد وبما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم، وبما فيها من الغايات المحمودة، أنه حكيم ، والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته، وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته، وفي سورة الرحمن يقول في عقب كل آية ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وهو يذكر فيها ما يدل على خلقه، وعلمه وقدرته، ومشيئته، وما يدل على إنعامه، ورحمته وحكمته، وفي نفس الإنسان عبرة تامة، فإن من نظر في خلق أعضائه، وما فيها من المنافع له وما في تركيبها من الحكمة والمنفعة مثل كون ماء العين مالحاً ليحفظ شحمة العين من أن تذوب، وماء الأذن مراً ليمنع الذباب من الولوج، وماء الفم عذبا ليطيب ما يمضغ من الطعام، وأمثال ذلك علم علما ضروريا أن خالق ذلك له من الرحمة والحكمة ما يبهر العقول مع ما في ذلك من الدلالة على المشيئة والعلم فبهذا وأمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذابا بمعجزة لا معارض لها لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقض سننه المعروفة، وعادته المطردة (٢) .

---

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٦٥ .

(٢) انظر ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٥٨ .

فكما أنه في خلقه عادل ، حكيم، رحيم، فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين، فإنه لا يكون إلا عدلا وحكمة ورحمة .

٧ ـ والأشعرى، والقاضى أبو بكر، وابن فورك والقاضى أبو يعلى، وغيرهم لما أرادوا إثبات معجزات الأنبياء عليهم السلام، وأن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب مع تجويزهم عليه فعل كل شيء وأنه لا يفعل شيئا لشيء، فقالوا لو جاز ذلك لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة، وما لزم منه نفى القدرة كان ممتنعا .

والكلام مبنى على مقدمات :

ان النبوة لا تثبت إلا بما ذكروه من المعجزات، وأن الرب لا يقدر على إعلام الخلق بأن هذا نبى إلا بهذا الطريق، وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة، وأن إعلام الخلق بأن هذا نبى بهذا الطريق ممكن، فلو قيل لهم لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شيء وإرادة كل شيء وأنه لا يفعل شيئا لشيء ، لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق أو كاذب [١]

فإن قالوا ننزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه كان هذا تناقضا، فإن فعل الممكن لا يستلزم العجز، بل امتناع الممكن يستلزم العجز [٢] .

ويرد عليهم ابن تيمية قائلا : إن «خطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه ثم يعلم بضرورة أو نظر ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، فإن هذا تفريق بين المتماثلين، وهذا قدح في البدهيات . . . فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه ولا عرفتم خاصة العقل »[٣] .

وهذا الكلام مبناه على أنه بغير المعجزة لا نستدل على قدرته تعالى على إقامة الدلالة على صدق الدعوى فتنتفى القدرة ويلزم العجز .

وهذا استعمال لدليل ما لا دليل عليه يجب نفيه وقد ثبت بطلان هذا النوع من الأدلة، فقد يكون هناك دليل آخر لا نعلمه .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ١٠١ .

(٢) انظر السابق ص ٢٣٨ .

(٣) السابق ص ٢٢٠ .

٨ ـ والمتأخرون من الأشاعرة لما عـرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كأبى المعالى والرازى وغيرهما وقالوا إن العلم بالصدق عند المعجز علم ضرورى .

يقول أبو المعالى الجوينى:[١] «من شهد مجلس الملـك في الصورة المفروضة علم على الضرورة تصديق الملك من يدعى الرسالة، وإن لم يخطر لمعظم الحاضرين نظر، وتفكر، في أن الملك لا يغـوى رعيـته، ولا يطغى حـاشيـته ولو كـانت دلالة المعجـزة على الصدق مـوقوفة على العـلم بأن مظهر المعجـزة لا يطغى ولا يضل لاخـتص بالعلم برسـالة الملك من نـظر هذا النظر. . . وليس الأمـر كـذلك على اضطرار، والذى يكشـف الحق في ذلك: أن الملك لو كـان ظالما غـاشـمـا لا تؤمن بوادره، فالفعل المفروض ممن هذه صفتـه تصديق لمدعى الرسالة، وجاحد ذلك منكر للبديهة» .

ويقول الغـزالى ـ عمن شهد مـجلس الملك في الصورة المفروضـة ـ «حصل للحاضرين علم ضرورى بأنه رسـول الملك قبل أن يخطر ببالهم، أن هذا الملك من عادته الإغواء أم يستحيل في حقه ذلك» [٢] .

ويقول الرازى: إن الشىء قد يكون جائز الوقوع في نفسه كأن تكون المعجزة لغرض آخر سوى التصديق فأغراضه تعالى كثيرة، ولا يحيط مخلوق بها علما، ومع ذلك فإنـا نعلم علما ضـروريا أنه غيـر واقع، ألا ترى أنا نجوز دخول شـخص في الوجود من غير أبوين، ونجوز أن يدخل في الوجود شيخ هرم من غير سبق الطفولة والشباب، والكهـولة، ثم إنا إذا أبصرنا إنساناً شيخا علمنا بالضـرورة أنه متولد من الأبوين، وأنه كان طفلا، ثم صار شابا، ثم صار شيخا [٣] .

«ومـوسى عليه السـلام لما قال: «إلـهـى أن كنت صادقـا في ادعاء الرسـالة فاجعل هذا الجبل واقفا في الهـواء، فوق رؤوسهم ثم إن القوم يشاهدون أنهم كلما آمنوا به تباعد الجـبل عنهم وكلما هموا بتكذيبه، قرب أن يسـقط عليهم، فعند هذا يعلم كل أحـد بالضرورة أن المقـصـود من هذا الإظلال تصديق المدعى في ادعـاء الرسالة»[٤] .

---

(١) الجوينى : الإرشاد ص ٢٧٥ . (٢) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٣) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٧
(٤) الرازى : النبوات ص ١٠١ .

«وتجويز أن يكون الغرض من إظلال ذلك الجبل شيئا آخر سوى هذا المقصود ، لا يقدح في حصول العلم الضرورى بأنه لا مقصود منه سوى ذلك»[1] .

«فالشيء إذا علم وجوده بالضرورة لم يكن تجويز نقيضه يقدح في ذلك العلم الضرورى»[2] .

ويرد ابن تيمية على هؤلاء قائلا:[3] «وهذا صحيح إذا منعت أصولهم، فإن هذه [الطريقة]تعلم إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئا لحكمة، فأما من لا يفعل شيئا لشيء، فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزة لتدل على صدق (النبى) لا لشيء آخر، ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشيء على أصلهم» .

٩ ـ ويضيف الرازى أنه إذا كانت أفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض فنحن لا ندعى أن خلق المعجز إنما كان لغرض التصديق بل نقول: خلق المعجز يعرف قيام التصديق بذات الله تعالى، وكما أن هذه الكلمات المخصوصة صارت دالة بحسب الوضع والاصطلاح على المعانى القائمة بذات المتكلم، فكذلك هذه الأفعال الخارقة للعادات إذا حصلت عقيب الدعوى، صارت دالة على قيام التصديق بذات من فعل المعجز[4] .

ويجيب ابن تيمة عن ذلك بقوله: «وإن قلتم هو وإن لم يقصد أن يفعل شيئا لحكمة، ولكن قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل بأحدهما على الآخر .

قيل هذا إنما يكون بعد أن يثبت التلازم، وأن أحدهما مستلزم للآخر، وهذا معلوم فيما يدل بمجرده، فإنه يمتنع وجوده بدون لازمه، أما ما يدل بالجعل والقصد فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولا له، واللزوم إنما يكون بالقصد، وهو عندكم يمتنع أن يفعل شيئا لأجل شيء، فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم، وهي أخص بالدلالة من غيرها »[5] .

ـ وحاصل الكلام هنا أنه :

إذا كان ابن تيمية يقول:[6] «إن خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب، فهو

---

(١) السابق ص ١٥٩ وانظر كذلك المحصل ص ٢١٤ .

(٢) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٧ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ١٠١ .

(٤) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٥) ابن تيمية : النبوات ص ٢٤٦ .

(٦) السابق ص ٣٦ .

ممكن والله سبحانه وتعالى قادر عليه، ولكنه لا يفعله لحكمته. . . والمعجز تصديق، وتصديق الكاذب هو منزه عنه» .

وإذا كان ابن تيمية أيضا يرى «أن العلم بالصدق عند المعجز علم ضروري»(١) .

وإذا كان الرازى يرى «أن الشيء قد يكون جائز الوقوع في نفسه، ومع ذلك فإنا نعلم علما ضروريا، أنه غير واقع» (٢) .

فحاصل الرأيين أنه تعالى يمكنه خلق المعجزة على يد الكاذب، ولكن لما كانت دلالة المعجزة على الصدق ضرورية آمنا من ذلك .

وإن أضاف من يثبت له تعالى الحكمة أن تصديق الكاذب يتعارض مع ذلك.

ولا يعنينا هنا تفصيل الكلام في الصفات الإلهية وقد اكتفينا فى إثباتها بمنهج القرآن الكريم «قياس الأولى، والنظر في الآيات الأنفسية، والآيات الكونية» .

و أضاف بعض من قال بتنزيهه تعالى عن الأغراض والمقاصد وجور عليه فعل كل شيء أن المعجزة إنما تدل على الصدق لئلا يلزم العجز للبارى عن تصديق نبيه .

أو أنه تعالى وإن لم يفعل شيئا لشيء لكنه قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل بأحدهما على الآخر. ولا يخفى ما في ذلك من ضعف كما سبق بيانه .

١٠ ـ وأما تصور الإغواء من الله تعالى والتشكيك لسبب ذلك، فنقول: مهما علم وجه دلالة المعجزة على صدق النبى علم أن ذلك مأمون عليه .

فإذا اعتبرنا أن دلالة المعجزة «عقلية» فعلى هذا يستحيل صدروها على يد الكاذب لما يلزم من نقض الدليل العقلى بأن يوجد ولا يوجد مدلوله .

«نعم يجوز للبارى تعالى الإضلال لكن لا بالمعجزة لا ستحالة ذلك معها، كما يجوز خلق السواد في محل معين، ولكن لا مع وجود البياض والمعية في النقيضين محال، والإضلال بالدليل قلب الدليل شبهة، والعلم الحاصل عنه جهلا،

---

(١) السابق ص ١٠١ .

(٢) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٧ .

وذلك محال» [1] .

أما إذا اعتبرنا أن وجه دلالتها «وضعية» فعلى هذا فيستحيل صدروها أيضا على يد الكاذب لما يلزم من الخلف في خبره تعالى لأن حكم المواضعة في الفعل حكم الكلام الصريح .

والكذب يستحيل عليه تعالى لأنه :

- إذا كان الله تعالى عالما بالأشياء كلها على ما هى عليه .

- وامتنع على العالم بالشيء أن يخبر المحل الذى قام به العلم منه بالكذب، وإنما كان الكذب في خبر اللسان اللفظى فقط .

- وكان الله تعالى منزها عن الاتصاف بالألفاظ .

- وكان منزها عن التركيب حتى يقوم العلم والصدق في محل والكذب في محل آخر.

- وكان منزها عن كل صفات النقص، والكذب صفة نقص، فوجب كونه تعالى صادقا [2] .

أما إن قلنا إن دلالة المعجزة عادية بحسب القرائن فحيث حصل العلم الضرورى عنها بصدق الآتي بها، فإنه يستحيل أن يكون كاذبا، وإلا انقلب العلم الضرورى جهلا .

١١ - ويرى ابن تيمية والخطابى والقاضى أبو يعلى ومحمد بن إبراهيم الوزير وغيرهم كثيرون: أنه إذا ثبتت النبوة حصلت المعرفة بوجود الله تعالى وكمالاته، لأنه ليست هناك رسالة سامية بدون مرسل متصف بكل صفات السمو والكمال وإذا ثبت أن هناك مرسلا متصفا بصفات الكمال أغنى ذلك عن النظر والاستدلال في دلائل العقول، وإن لم يكن هناك مانع من صحة النظر وحصول المعرفة به، خلافا

---

(١) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٦٥ .

(٢) انظر الجويني : الإرشاد ص ٢٨٠ ، ٢٨٢ . والغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٤ . والسنوسى : شرح الكبرى ص ٤٥٥ ، ٤٦٢ .

للأشعرية الذين اشترطوا ـ قبل تصديق النبى ـ النظر في إثبات الصانع وأنه حكيم قادر حتى يعلم أنه متى كان كذلك لم يظهر المعجزة على يد الكاذب .

وهذه الطريقة طريقة البدء بإثبات النبوة صحيحة، وذلك لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها .

ـ ولأن المعجزة التى هى فعل خارق للعادة، تدل بنفسها على ثبوت الصانع وكمالاته كسائر الحوادث.

بل هى أخص لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة التى يحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمتها ما لا يحصل للمعتاد إذ هى آيات جديدة فتعطى حقها [1] .

ويؤيد ما ذكرنا أن الأنبياء كافة، ما كانوا يأمرون الصبى إذا بلغ التكليف بالنظر إلى الأدلة، ولا الكافر الذى يأتي مصمما على إنكار الله وجميع الشرائع بالنظر قبل تصديق النبى في إثبات الصانع وأنه حكيم، حتى يعلم أن الله متى كان حكيما قادراً لم يظهر المعجز على الكاذب، والذى يدل على هذا أن العلم بالله من طريق الاستدلال لا يحصل لأحد إلا بعد الإتقان لأدلة المتكلمين، بل كثير من الناس يفنى عمره في درسها، وما يحصل على طائل من تحقيقها بل الأقل من العلماء هو الذى يستفيد في هذا الفن، ويتمكن من رد الشبهة ودفع المناظرين، ولو أن العامى أتى بأدلة المتكلمين وأجوبتهم عن الفلاسفة وإن غير العبارة من غير أن يأخذ عن شيخ، ولا يدرس كتابا لكان من قبيل المعجز الخارق للعادة [2] .

ومما يوضح صحة الاستدلال على إثبات الرب سبحانه وعلى صدق النبوة بالمعجز، قول الله تعالى فيما حكى عن موسى عليه السلام وفرعون. . . **﴿قال لئن اتخذت إلـها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشىء مبين، قال فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** [3] .

---

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٩ .

(٢) انظر محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٣٧ .

(٣) الشعراء : ٢٩ – ٣٣ .

فـهنا يحتج مـوسى عليه السـلام على نبـوته وعلى وجود الرب سـبحـانه بالمعجزة.

ومما يدل على ذلك أيضا أن السحـرة حين ألقوا عصيهم ما كـانوا قد عرفوا الله تعالى، قال تعالى :[1] **﴿فألقوا حبالهم وعصـيهم وقالوا بعزة فرعون،إنا لنحن الغالبون،فـألقى موسى عصاه،فـإذا هي تلقف ما يأفكون،فألقى السحـرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون﴾** .

وإذا كان كثيـر من المتكلمين، قد ذهب إلى ضرورة تقدم المعرفـة أولا بثبوت الرب وصفـاته التى يعلم بها أنه هـو، وإلا تعذر الاسـتـدلال بالمعجـزة على صدق الرسول، وإذا كـان قد ذهب بعض آخـر إلى أن معـرفة الله تعـالى وصفاته تـثبت بثبوت النبوة كما قد تثبت بطريق العقل .

أي أن الاستدلال بالمعجزة لا يشترط تقدم المعرفة بالرب وصفاته .

فإني أرى أن هوة الخلاف بين هذين الرأيين ليـست كبيرة جداً كمـا قد يبدو للوهلة الأولى .

وذلك إذا أخذنا في اعـتبارنا أن معـرفة الله تعالى أمر فطرى، وقـد أخذ الله العهد على بنى آدم في عـالم الذر على الإيمان به قال تعالى:[2] **﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهـم ذريتهم،وأشـهـدهم على أنفسهم ألست بـربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾** .

ولذلك كان أسلوب القرآن في كـثير من الآيات على سبيل التـذكير **﴿لعلهم يتذكرون﴾**[3] ، **﴿إن في ذلك لذكـرى﴾**[4] ، **﴿إنما أنت مذكر﴾**[5] ، **﴿إن هذه تذكرة﴾**[6] ، **﴿فهل من مدكر﴾**[7] .

فحتى وإن كان ذلك العـلم بوجود الله وكماله قد شابه كثـير من الغفلة، أو الجـحود أو النـكران فإن المعـجـزة التى هى آية للقـدرة الإلهـية قـد تجلوا صـدأ

---

(١) الشعراء : ٤٤ – ٤٨ . (٢) الأعراف : ١٧٢ .
(٣) البقرة : ٢٢١ ، إبراهيم : ٢٥ ، القصص : ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، الزمر : ٢٧ .
(٤) الزمر : ٢١ . (٥) الغاشية : ٢١. (٦) المزمل : ١٩ ، الإنسان : ٢٩ .
(٧) القمر : ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ .

الغفلة، والجحود وتذكر النفس بإيمانها الفطرى وعهدها القديم، مثلها مثل آيات خلق السموات والأرض .

فحتى على الرأي القائل بأن الاستدلال بالمعجزة لا يشترط تقدم المعرفة بالرب وصفاته، فإنه لابد من توافر شيء من المعرفة به تعالى، وإن تمثل ذلك في «الفطرة» وإن علاها الصدأ، وإن غشيتها الغفلة .

وهذا الخلاف يؤكد على ما ذهبنا إليه قبل من أن المعجزة نسبية في فهمها وإدراكها .

obeikandl.com

الفصل السادس

الطعن فى المعجزة المعنوية

obeikandl.com

يقول مصطفى صبرى:[1] «إن الصلاح والفساد كثيرا ما يختلفان باختلاف الأنظار فالحكم بصلاح الأفعال ونتائجها يتوقف على معرفة أن فاعلها مصلح حقيقي، ونبى من أنبياء الله، فلو توقفت معرفة كونه نبيا أى مصلحا حقيقيا على الصلاح فى أفعاله كان دورا. وفضلا عن هذا فإنه بعد ما بين المشروعات ونتائجها يقتضى [الأمر] في الأكثر مرور أزمنة طويلة قد يظهر في آخرها أن القائم بدعوى الإصلاح كاذب في دعواه، فيجب على الناس أن يكونوا من أول أمرهم مع مدعى النبوة الذى يتولى هدايتهم إلى الدين الحق على بينة من صدقه فيما ادعاه» .

ويذهب ابن تيمية إلى عكس ما ذهب إليه مصطفى صبرى فيرى أن المستدل إنما يستدل بما يعلمه من الحق والخير جملة على علم صاحبه وصدقه ثم يستدل بعلمه وصدقه على ما لم يعلمه تفصيلا، لأن العلم بجنس الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب معلوم بالفطرة، والعقل الصريح، بل إن جمل ذلك مما اتفق عليه بنو آدم، ولذلك يسمى ذلك معروفا ومنكرا .

فإذا علم أنه فيما علم الناس أنه حق و أنه خير هو أعلم منهم به، وأنصح الخلق فيه، وأصدقهم فيما يقولون علم بذلك أنه صادق عالم ناصح لا كاذب ولا جاهل ولا غاش ويؤكد ابن تيمية على بساطة هذه الطريقة وأن هذه الطريقة يسلكها كل أحد بحسبه، ولا يحتاج في هذا الطريق إلى أن يعلم أولا خواص النبوة، وحقيقتها وكيفيتها، بل أن يعلم أن النبى صادق بار فيما يخبر به، ويأمر به، ثم من خبره يعلم حقيقة النبوة والرسالة [2].

ويقول ابن تيمية كذلك :[3] «والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقة، وغير ذلك، فما من أحد يدعى العلم بصناعة أو مقالة إلا و التفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، وكذلك من أظهر قصداً وعملا كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لابد أن يتبين صدقه وكذبه من وجوه متعددة» .

---

(١) مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٢٨ .

(٢) انظر ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) السابق ص ٩١ .

والصحيح هو ما ذهب إليه ابن تيمية وهو نفس ما ذهب إليه الغزالى حيث يقول[1] «إن النبى - يرد مخبراً بما لا تشتغل العقول بمعرفته ولكن تستقل بفهمه إذا عرف، فإن العقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ولا يفرق بين المشقى والمسعد كما لا يستقل بدرك خواص الأدوية والعقاقير، ولكنه إذا عرف فهم وصدق وانتفع بالسماع فيجتنب الهلاك ويقصد المسعد، كما ينتفع بقول الطبيب فى معرفة الداء والدواء، ثم كما يعرف صدق الطبيب بقرائن الأحوال وأمور أخر، فكذلك يستدل على صدق الرسول عليه السلام بمعجزات وقرائن وحالات فلا فرق» .

فإن قيل: إن إثبات العلم الضرورى الحاصل عن القرائن لا يصح في ما لم يسند إلى المشاهدة بالإجماع .

فنقول إن قرائن الصدق منها أمور مشاهدة محسوسة كثيرة تكفى لتوليد العلم الضرورى بالصدق .

فحال الداعى وكونه صادقا إنما أتى من اختبار في مواقف كثيرة أبانت صدقه وأمانته وبالطبع فقد كانت هذه المواقف مشاهدة محسوسة .

وقيمة الدعوى أيضا تظهر في كثير من المواقف المشاهدة المحسوسة، فمن ينكر أن قيمة الدعوة ظهرت مشاهدة محسوسة في تحريم وأد البنات، والخمر والزنا والظلم. . .الخ ومن ينكر أن قيمة الدعوة ظهرت مشاهدة محسوسة في أمره تعالى بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى وبر الوالدين والصدقة . . .الخ يقول تعالى:[2] ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ .

وإذا كان خبر التواتر قد أفاد العلم لكثرة القرائن، لأن خبر كل واحد يمثل قرينة تفيد الظن فإذا تجمعت القرائن قويت معاً حتى تفيد العلم الضرورى فكذا شأن قرائن الصدق إذا تجمعت في شخص فإنها تفيد العلم الضرورى بصدقه .

---

(١) الغزالى : لاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٣ .ويتطابق كلام الغزالى هنا مع كلام كثير من المفكرين الغربيين انظر على سبيل المثال

Charles H. Coates: The Red Theology in The Far East .p. 29

(٢) النحل : ٩٠ .

والمعجزة إذا كانت نسبية في درجة خارقيتها وفي فهما فمن الطبعي أن يكون مثل هذا الخلاف حول تفضيل المعجزات الحسية أو المعجزات المعنوية، ولكن ما لا خلاف على وضوح دلالته على الصدق هو مجموع المعجزات وقرائن الصدق التي تكون لنبي يقول تعالى:[1] ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ .

وإذا كانت المعجزات المعنوية منها ما يرجع إلى حال الداعي ومنها ما يرجع إلى قيمة الدعوة، فقد قامت الأدلة الشرعية والعقلية على إفادة هذه القرائن العلم بالصدق وبيان ذلك فيما يلي :

- أولا: قرائن الصدق التي ترجع إلى حال الداعي :

فالقرآن الكريم يصرح بإفادة قرائن الأحوال العلم بصدق المخبر متى ظهرت عليه وكثرت .

يقول تعالى:[2] ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ .

إذ لا فرق بالنظر إلى دليل المعجزات بين أن يكون النبي - ﷺ - لبث فيهم عمراً من قبله أو لا إذ فعل المعجز يتعذر على من لم يلبث فيهم عمراً كما يتعذر على من لبث فيهم فلما فرق الله بين الحالتين حتى أثبت الريبة في أحدهما دون الأخرى، وحتى وبخهم بقوله ﴿أفلا تعقلون﴾ حين لم يصدقوا من لبث فيهم عمراً كثيرا لم يأت بشيء من القرآن ولا جرى على لسانه ذكر النبوة ثم جاء بذلك بعد ما مضى أكثر عمره وكان متصفا بكل صفات الصدق والأمانة والعقل والفطانة علمنا أنه تعالى احتج عليهم بالقرائن التي تفيد العلم إذ لو لم يحتج بها لما كان لها معنى، ولكان إفحام الرسول حين جاء بها ممكنا، وذلك لا يجوز .

وفي قوله ﴿أفلا تعقلون﴾ تنبيه على أنه لا ينكر عاقل صدق من قضت القرائن الضرورية بصدقة [3] .

فمحمد - ﷺ - عندما أعلن النبوة لم يكن صدقه موضع شك إو بحث مطلقا لدى أهل مكة، لأنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة بل يسجل التاريخ

---

(١) النمل : ٩٣ . (٢) يونس : ١٦ .

(٣) انظر محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٤٣ ، ٤٤ .

أنه لم يكن بمكة أحد عنده شيء ويخشى عليه إلا ووضعه عنده - ﷺ - لما يعلم من صدقه وأمانته .

فلا بد للنبي أن يكون معروفا لقومه معروفة صفاته التى هى في قمة الكمال الإنسانى لهم حتى يكون ثقة،وحتى يكون قدوة فيكون النظر في حاله داعيا إلى الإيمان به .

ومن هذا الصفات أن النبى لا يطمع في الدنيا ولا يطلب أجراً .

- قال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله﴾ (١) ،وقال ﴿ويا قوم لا أسئلكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله﴾(٢)، وقال ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾(٣)،وقال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿يا قوم لا أسئلكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون﴾(٤) وقال ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾(٥) ،وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾(٦)،وقال تعالى على لسان لوط عليه السلام ﴿وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾(٧)،وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام﴿وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾(٨) وقال تعالى على لسان الرسول - ﷺ - ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾(٩) وقال ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾(١٠) ،وقال ﴿أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾(١١)،وقال مؤمن يس ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ (١٢).

---

(١) يونس : ٧٢ .
(٢) هود : ٢٩ .
(٣) الشعراء : ١٠٩ .
(٤) هود : ٥١ .
(٥) الشعراء : ١٢٧ .
(٦) الشعراء : ١٤٥ .
(٧) الشعراء : ١٦٤ .
(٨) الشعراء : ١٨٠ .
(٩) سبأ : ٤٧ .
(١٠) الشورى : ٢٣ .
(١١) القلم : ٤٦ ، الطور : ٤٠ .
(١٢) يس : ٢١ .

بينما قال تعالى على لسان سحرة فرعون ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾[1] وقال ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين﴾ [2].

وكذلك ورد على لسان عيسى عليه السلام فى الإنجيل: «من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق» [3].

والنبى كذلك يجب أن يكون على خلق عظيم فيقول تعالى عن نبينا الكريم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [4].

ومعلوم أن مدعى النبوة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقصهم ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبى ـ ﷺ ـ لما دعاهم إلى الإسلام والله لا أقول لك كلمة واحدة إن كنت صادقا فأنت أجل في عينى من أن أرد عليك وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أرد عليك فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقصهم وأرذلهم !

وكذلك من تدبر أحوال الأنبياء عليهم السلام التى تفيد العلم بصدقهم والتى حدثنا عنها القرآن: قوة يقينهم بمواعيد الله وتسليمهم نفوسهم لما أمرالله وإن كان في ظاهره كالجناية على النفس والإلقاء بها الى التهلكة. فهم فقراء مساكين تقتحمهم العيون وتزدريهم القلوب، أتوا أقوامهم بأعظم ما يوجب ضرب أعناقهم، و يشجعهم على قتلهم، فسبوا آلهتهم وسفهوا أحلامهم، وبالرغم من ذلك تحدوهم بأن الله يحميهم منهم حتى تكتمل الرسالة الإلهية كقول نوح عليه السلام وهو وحده لقومه مع كثرتهم وقوتهم ﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾[5] ونحو ذلك قال هود وكذلك نهى رسولنا ـ ﷺ ـ أصحابه عن حراسته بعد نزول قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾[6] ولم يقف الأمر على ذلك بل تعداه إلى قراباتهم وأرحامهم الذين جبلت الطباع على محبتهم فعادوهم إن هم عادوا الله تعالى، فهذا نوح عليه السلام ترك ابنه يغرق واستغفر من دعائه له بألا يهلك، وهذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتبرأ من أبيه آذر ويعزم على ذبح ولده الذى هو قرة عينيه تنفيذاً لأمر ربه .

---

(١) الأعراف : ١١٣ .
(٢) الشعراء : ٤١ .
(٣) يوحنا ٧ : ٨/
(٤) القلم : ٤ .
(٥) يونس : ٧١ .
(٦) المائدة : ٦٧ .

وكذلك من قرائن أحوال الأنبياء عليهم السلام .

أنهم بقوا على طريقتهم المرضية من أول أعمارهم إلى آخرها، يقول نيتشه: «ليست قوة المشاعر العظمى هي التى تخلق العظماء ولكن مدتها».

والكاذب يبحث عن الدنيا وإذا وجدها ولم ينتفع بها كان ساعيا إلى تضييع الدنيا والآخرة على نفسه .

ومن قرائن أحوالهم أيضا عليهم السلام: أن العاقبة في النهاية تكون لهم، فقد ثبت في البخارى من حديث ابن عباس: «الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة» (١).

والله تعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة وذلك معلوم إما بالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم وإما بالسمع المتواتر.

قال تعالى: (٢) ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ .

ولذلك أكثر القرآن من ذكر قصص الأنبياء لأن النظر في أحوالهم وأخبارهم يفيد العلم الضرورى بصدقهم في دعوى النبوة .

وكذلك من قرائن الصدق للأنبياء عليهم السلام:

ورود البشارى بهم ممن سبقهم من الأنبياء، يقول تعالى: (٣) ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾ .

- وتصرح السنة النبوية كذلك بإفادة قرائن الأحوال العلم بصدق المخبر متى ظهرت عليه .

---

(١) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب ١٠٢ ، ١١ من كتاب الجهاد وفى الباب الرابع من تفسير سورة آل عمران ومسلم فى صحيحه برقم (٧٤) من كتاب الجهاد وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٢) يوسف : ١٠٩ ، ١١١ . (٣) الشعراء : ١٩٧ .

فقد روى البخارى ومسلم عن أبي موسى عن النبى - ﷺ - أنه قال :[1] «إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه، فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان[2] فالنجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق» .

فهنا شبه النبى - ﷺ - صدقه بصدق من يعلم صدقه بالقرائن الضرورية في حال لا أحوج منها إلى إيراد الدليل الواضح .

وقد روى البخارى وأحمد والترمذى عن ابن عباس «قال لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[3] صعد النبى - ﷺ - على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب، وقريش فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»[4] .

فاكتفى بذكر معرفتهم لصدقه وأمانته عن الإتيان بمعجزة حسية .

وجعل - ﷺ - علامة كذب الدجال أنه أعور و أنه يدعى الألوهية . ولله تعالى صفات الكمال والعور صفة نقص، يقول - ﷺ - : «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور»[5].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه فى الباب (٢٦) من كتاب الرقاق ،والباب (٢) من كتاب الاعتصام ومسلم فى صحيحه برقم (١٦) من كتاب الفضائل .

(٢) العريان :من لا يكتم سرا ،انظر عبد السلام هارون : المعجم الوسيط جـ ٦ ص ٦١٩ .

(٣) الشعراء : ٢١٤ .

(٤) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب الثاني من تفسير سورة الشعراء وفى تفسير سورة سبإ فى الباب الثاني وفى تفسير سورة المسد فى الباب الأول والثاني ورواه الترمذي فى سننه فى تفسير سورة المسد وكذا أحمد فى المسند جـ١ ص٢٨١، ٣٠٧ جـ٣ص٤٧٦ جـ٥ص٦٠ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه جـ١٨ ص٥٩ برقم (٢٧٤) من كتاب الإيمان ورقم(١٠٠) من كتاب الفتن والبخاري فى صحيحه فى الباب(١٧) من كتاب التوحيد والباب(٤٨) من كتاب الأنبياء والباب(٧٧) من كتاب المغازي ، وأحمد فى المسند جـ١ ص٢٤٠، ٣١٣، جـ٣ص٧٩، ١٠٣، ١٧٣، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٥٠، ٢٧٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٦٧، جـ٢ ص٣٧، ١٣١، ١٣٥، جـ٥ ص٤٣٥ جـ٦ ص٧٥ .

ثم إن الدجال وإن لم يكن أعور ففي بشريته من النقص ما يدل على كذبه في دعواه الألوهية .

فعلامتا كذبه تعودان إلى قيمة الدعوة، وحال الداعي ولم يهتم - ﷺ - ببيان الفارق بين ما يأتي به الدجال من الشبهات وبين الخارق الحقيقي للعادة الذي يظهره الله على يد أنبيائه تأييداً لهم.

ويقول ابن تيمية: إن موسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهارون وغيره إن الله أرسلني علموا صدقه، قبل أن يظهر لهم الآيات، ولما قال لهارون إن الله قد أمرك أن تؤازرني صدقه هارون في هذا لما يعلم من حاله قديما ولما رأى من تغير حاله الدال على صدقه .

ويقول ابن تيمية كذلك: إن أبا بكر وزيد بن حارثة وغيرهما علموا صدقه -ﷺ- علما ضروريا لما أخبرهم بما جاء به وقرأ عليهم ما أنزل عليه وبقي القرآن الذي قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علما ضروريا بأنه صادق [1].

وفي ذلك يقول - ﷺ - إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق وواساني بنفسه وماله .

ولما كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - تعلم من النبي - ﷺ - أنه الصادق البار وقال لها لما جاءه الوحي«لقد خشيت على نفسي فقالت: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل[2] وتكسب المعدوم و تقري الضعيف وتعين على نوائب الحق»[3].

«ولما بعث رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام فقالوا: يا خالد صف لنا محمداً قال بإيجار أم بإطناب، قالوا بإيجار قال هو رسول الله، والرسول على قدر المرسل»[4] فاستدل بحاله على نبوته - ﷺ - .

---

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ٢٤٤ .

(٢) الكل: الضعيف والمتعب، عبد السلام هارون وآخرون: المعجم الوسيط جـ٢ ص٨٢٧ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه في تفسير سورة العلق جـ٦ ص ٢١٥ . (٤) الماوردي : أعلام النبوة ص ٢٥.

ويقول العقاد في ذلك: (١) «خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين وإلا فلأى شيء خلق، ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ .

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان تاجراً أمينا ناجحا موثوقا به في سوق التجار والشراة. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها في العمل مهما يتسع له المجال

ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد» .

ثانيا :قرائن الصدق التي ترجع إلى موضوع الدعوة :

فيجب أن يكون هناك تلائما بين موضوع الدعوة وبين الفطرة الإنسانية والواقع الإنساني، كما يجب أن يكون هناك انسجاما تاما بين جزئيات المذهب المكونة له، فلا تتعارض الأخلاق مثلا أو العقوبة المقررة لحمايتها مع الأصول الفكرية لهذا المذهب (٢) .

والقرآن الكريم يصرح بأن النظر في موضوع الدعوة يفيد العلم الضرورى بصدقها

- يقول تعالى: (٣) ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ .

- ويقول تعالى: (٤) ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ فتشير هذه الآية إلى أنه يستحيل مع النظر في موضوع الدعوة أن يوجد لبس في التفريق بين أصدق الصادقين وأظلم الكاذبين .

- ويقول تعالى: (٥) ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ فتحداهم بما فيه من الهدى، وجعل الهدى علامة صدق الدعوى .

---

(١) العقاد عبقرية محمد ص ١٦، ١٧ .

(٢) يقول السير هنري جونز Sir Henry Jones في كتابه A Faith That Enquires «إن الدين كالعلم يمكن أن ينبني على أساس الفرضية وهذه الفرضية يمكن أن تختبر بالتجربة. وتجربة الفرضية هى موافقته أو عدم موافقته مع باقي الأفكار

انظر Abel,J.Jones :In Search of Truth pp.165:166

(٣) النساء : ٨٢ . (٤) الأنعام : ٩٣ . (٥) القصص : ٤٩ .

- ويقول تعالى:[1] ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ فنفى وجود الريبة لوجود الهدى .

- ويقول تعالى على لسان الجن[2] ﴿إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ فعرفوا صدق الرسول بالنظر في موضوع الدعوة فهى دعوة إلى الهداية ولا تخرج فى إطارها العام عما جاء به موسى .

ويقول تعالى:[3] ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾.

فجعل تعالى علامة صدق الرسول - ﷺ - فيما يدعو إليه .

وقد ورد في الكتاب المقدس على لسان المسيح عليه السلام.

«إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هو ذا هناك فلا تصدقوا لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا»[4] ولكنه عليه السلام جعل الفرق في قوله«من الثمر تعرف الشجرة»[5] وورد كذلك في الكتاب المقدس: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم هل جتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة كل شجرة لا تصنع ثمراً تقطع وتلقى في النار فإذا من ثمارها تعرفونهم»[6].

وفى إنجيل يوحنا نجد أن النظر إلى حال الداعى وقيمة الدعوى كان سببا كافيا لإيمان السامريين[7] والقائد الملكى[8].

---

(١) البقرة :١ : ٢ .وهو نفس ما جاء فى سفر إشعياء:«هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى لا ترجع إلى فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح فى ما أرسلتها له» ٥٥:١١ . (٢) الأحقاف : ٣٠ . (٣) الأعراف : ١٥٧

(٤) مرقس الأصحاح (١٣) آية ٢١ ، ٢٢ . وانظر كذلك متى الأصحاح (٢٤) آية ٢٤.

(٥) متى الأصحاح (١٢) آية ٣٣ . (٦) السابق الأصحاح (٧) أية ١٥ ، ٢٠.

(٧) يوحنا ٤ : ٤٠ ـ ٤١ . (٨) السابق ٤ : ٥٠ .

ويقول تعالى:[1] ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون...﴾ .

والمعنى أنه لو كانت الدعوة إلى طلب الدنيا، كان ذلك الداعي أفاكا أثيما، والذين يعينونه هم الشياطين وأما أنا فأدعوا إلى الله وإلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، ولا يكون هذا بإعانة الشياطين بل بإعانة الله تعالى فاستدل بكون دعوته إلى الله تعالى وإلى الحق على كونه نبيا صادقا لا ساحراً خبيثا ولا شاعراً أيضا لأن﴿الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ فالشاعر إنما يدعو إلى الطمع في الدنيا وإلى التراغيب في اللذات والشهوات أما أنا فأدعوا إلى الله تعالى، وإلى الدار الآخرة، فامتنع أن يكون الناصر هنا : هو الشيطان فظهر الفرق .

وقال تعالى عن المنافقين:[2] ﴿فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ «وقيل ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»[3].

ومن تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام من الشرائع والعقائد علم علما ضروريا أن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد أو مخطئ ضال يظن أن الله أرسله وهو لم يرسله .

وفي قوله تعالى:[4] ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ .

فهو لم يدعوهم إلا إلى ما شهدت به فطرتهم واعترفوا به في قرارة أنفسهم ومنعهم العناد من التصريح به ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ وهو لم يدعوهم إلا إلى ما تشهد به عقولهم ﴿ أفلا تعقلون﴾ .

ويقول تعالى على لسان هود عليه السلام:[5] ﴿ياقوم لا أسألكم عليه أجرا

(١) الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٦.
(٢) محمد : ٣٠ .
(٣) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية ص٩٢ .
(٤) الأنبياء : ٦٢ ، ٦٧ .
(٥) هود : ٥١ .

إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون﴾ فهو يتعجب من عدم إيمانهم فما يدعوهم إليه يدركه من له أدنى عقل ﴿أفلا تعقلون﴾ فهو أمر فطرى مركوز في النفس .

ويقول تعالى على لسان مؤمن يس:(١) ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهو مهتدون،ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون،ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين﴾ .

فاستدل مؤمن يس على صدق الأنبياء عليهم السلام بالنظر إلى حالهم، فهم لا يسألون الأجر، وهم مهتدون وبالنظر إلى حال دعوتهم فهى دعوة إلى الهداية وإلى الفطرة التى تشهد بوجود الله تعالى وتنزهة عن كل النقائص .

ففى قوله تعالى ﴿ومالى لا أعبد الذى فطرنى﴾ إشارة إلى أن الفطرة هى التى تنادى بوحدانية الفاطر تعالى ومن ثم العجب حقا ممن لا يستجيب لهذا النداء الفطرى﴿ومالى لا أعبد الذى فطرنى!﴾ فما يدعو إليه الأنبياء ليس إلا ما تنادى به الفطرة .

ثم إنه من ﴿الضلال المبين﴾ أن يخالف الإنسان فطرته وعقله ويعبد من دونه تعالى مالا ينفع ولا يضر .

ويقول تعالى على لسان قوم نوح عليه السلام:(٢) ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ .

فهم قد تنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل إنهم من أفناء الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل: «وهم اتباع الرسل» وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقولهم: «بادى الرأى» [قيل]: أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم. فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر، ولهذا قال رسول ـ الله ﷺ ـ ما دحا الصديق: «ما دعوت

(١) يس: ٢٠ ، ٢٤ . (٢) هود: ٢٧ .

أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم»[1] .

ويقول تعالى:[2] ﴿كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين،فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ .

فاستدل على نبوته بحاله وبقيمة دعوته فهو أمين ولا يسأل الأجر ولا يدعو إلا إلى ما تشهد به الفطرة ولذلك جاءت العبارة في صيغة التعجب فما يفعلونه أمر معلوم بطلانه بالفطرة ﴿أتأتون الذكران من العالمين! وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم !﴾ .

ويقول تعالى:[3] ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين.أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين﴾ .

فاستدل على نبوته بحاله وبقيمة دعوته فهو رسول أمين ولا يسأل أجراً ولا يدعو إلا إلى العدل وعدم الفساد في الأرض وتقوى الله وكل ما هو معلوم بالفطرة أنه حق وأنه خير .

ويقول تعالى:[4] ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ وهذا في شأن الداعى وتستمر الآيات،فيقول تعالى:﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ وهذا في شأن الدعوة .

ولذلك يقول تعالى على لسان الرسل:[5] ﴿قالت رسلهم أفى الله شك فاطر

---

(١) ابن كثير : قصص لأنبياء ص ٧٣ .
(٢) الشعراء : ١٦٠ ، ١٦٦ .
(٣) الشعراء : ١٧٦ ، ١٨٤ .
(٤) العنكبوت : ٤٨ .
(٥) إبراهيم : ١٠ .

السموات والأرض﴾ فهو حقا أمر يدعو إلى العجب أن يشك الناس فى الله وهو فاطر السموات والأرض، وكل ما حولنا يدل عليه وعلى وجوده وبالتالى على صدق الأنبياء الذين لم يدعوا إلا إلى ما دلت عليه الآيات من حولنا .

ويقول تعالى:[1] ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ فالبرهان الحقيقي هو ذلك النور المبين .

ويقول تعالى[2] ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب﴾ .

فهو هنا يستدل على نبوته بحاله: وهو أنه لا يطلب الأجر وبحال دعوته وهى انها دعوة إلى الحق وأن مثل هذا الحق لا يمكن أن يقول به من كان به جنة وضعف في عقله .

وروى البخارى ما يفيد بأن النظر في حال صاحب الدعوة وقيمتها يولد العلم بالصدق حيث يروى في صحيحه[3] «عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التى كان رسول الله ـ ﷺ ـ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا فقال أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه قل لهم إنى سائل هذا عن الرجل فإن كذبنى فكذبوه فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علىّ كذبا لكذبت عنه، ثم كان أولّ ما سألنى عنه أن قال كيف نسبه فيكم؟ قلت هو فينا ذو نسب، قال فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت لا قال فهل كان من آبائه

---

(١) النساء : ١٧٤ .

(٢) سبأ : ٤٦ : ٥٠ .

(٣) رواه البخاري فى صحيحه جـ١، ص٥ ٦ .

من ملك؟ قلت لا قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟فقلت بل ضعفاؤهم، قال أيزيدون أم ينقصون؟قلت بل يزيدون قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟قلت لا قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا قال فهل يغدر؟قلت لا و نحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها قال [أبو سفيان] ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شئيا غير هذه الكلمة قال فهل قاتلتموه؟ قلت نعم، قال فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه [1] قال ماذا يأمركم؟ قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والعفاف والصلة .

فقال للترجمان قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟فذكرت أن لا قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم اتباع الرسل وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب[2] وسألتك هل يغدر؟فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك بما يأمركم؟فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والعفاف فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.» .

---

(١) فإن سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجتا الشكر والصبر .

(٢) فإن الكذب والباطل لابد أن ينكشف فى آخر الأمر فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه ولهذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبي الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة،

[ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٩٥ ، ٩٦] .

وروى عن بعض الأعراب أنه قال وقد سئل بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال ليته أمر به.

وهو ما استدل به جعفر بن أبى طالب أيضا في حديثة مع النجاشى حين قال عن الإسلام«جاءنا به رجل من أنفسنا قد عرفنا وجهه ونسبه بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا فأمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له فصدقناه»[1].

وروى أنه لما ظهر النبي - ﷺ - بمكة ودعا إلى الإسلام: بعث أكثم بن صيفى ابنه«حبيشا» فأتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال لهم فيما قال: إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره وكتابه يأمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ويأخذ بمحاسن الأخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأي منكم: أن الفضل فيم يدعو إليه وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

ثم يقول: إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنا.

وفي عصرنا الحديث نلاحظ أن جل من يعلنون إسلامهم: أن ما كان وراء إسلامهم هو بساطة الإسلام ومنطقيته وقابليته للتطبيق وموازنته بين الروح والمادة وشمول تشريعه، وعظمته وموازنته بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وعالمية رسالته وإنسانيتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان ونقاؤه من التحريف والتبديل الخ[2].

وفي ذلك يقول ابن تيمية:[3]«الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو واقع فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره إذ طاعة الأول أعم وأكثر والمطيع بها خيار بنى آدم عقلاودينا وأما الثانية فلا تدوم، ولا تكثر ولا يدخل فيها إلا جهال الناس كأصحاب مسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدى ونحوهم، وأهل البوادى والجبال

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٣ ص٧١.

(٢) انظر عبد اللطيف الجوهري: رجل من أمة التوحيد أسلم على يده (٤٠٠٠).

(٣) ابن تيمية بقاعدة شريفة ص ٣٣.

ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين» .

ومما قد يؤكد صحة أن النظر في حال الداعى وقيمة الدعوة يؤدى إلى العلم الضرورى بالصدق أن أصل جميع البشر وهو آدم عليه السلام ربما كان أول من ادعى هذه الدعوة وسلك هذا السبيل ولا حاجة له إلى الكذب والتزوير إذ لا أحد معه فيحتال عليه ويخدعه ليأخذ ماله إلا من هو طوعه وفرعه ومسعده ومتبعه[1].

وعلى ذلك فالعالم ما زال فيه نبوة من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ـ ﷺ ـ .

فقد روى الزمخشرى عن ابن عباس أن الخلق كانوا أمه واحدة على الحق لا اختلاف بينهم عشرة قرون من بعد آدم عليه السلام إلى وقت نوح عليه السلام[2] ذكره في تفسيره قوله تعالى:[3]﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ ويقول تعالى:[4]﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ .

و . ثم فقد علم جنس ما يدعوا إليه الرسل وجنس أحوالهم .

يقول تعالى:[5]﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ .

ومما يؤكد صحة ذلك أننا إذا نظرنا فيما يدعو إليه الأنبياء جميعا نلاحظ عدم اختلافهم مع أن الذى أخبروا به أمر غير مشاهد، بل أمر تحيرت فيه العقول وخبطت خبط عشواء وطلبت تحقيقه فلم ترجع بطائل فالفلاسفة اختلفوا أشد الاختلاف والأنبياء عليهم السلام ما كانو من أهل المنطق والفلسفة والجدل وإنما كانوا سالكين مسلك المتعبدين، ثم أتى كل واحد منهم بعقائد وشرائع إليها مرجع ومنتهى كل ناظر .

ثم إن القرآن والتوراة يتفقان في عامة المقاصد الكلية من العقائد والشرائع.

ومن ثم كان قول النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وقول ورقة بن نوفل: إن هذا هو الناموس الذى كان يأتي موسى [6].

ويقول تعالى في ذلك :

---

(١) انظر محمد بن إبراهيم الوزير: البرهان القاطع ص ١٦ .

(٢) انظر الزمخشري :الكشاف جـ١ ص ٣٥٥ . (٣) البقرة : ٢١٣ .

(٤) فاطر : ٢٤ . (٥) البقرة :١٤٦ . (٦) انظر ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٥٢ .

- ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به،وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله﴾[1].

- ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾[2].

- ﴿قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم،ومن عنده علم الكتاب﴾ [3].

وصدق الله العظيم

وها هو موسى بن ميمون اليهودى يفرق بين الصادق والكاذب بالنظر إلى حال الداعية وقيمة الدعوة فيقول :[4] «إذا ما وجدت شريعة . . لا يكون فيها تعريج بوجه على أمور نظرية،ولا التفات لتكميل القوة الناطقة،ولا يبالى فيها عن الآراء كانت صحيحة أو سقيمة،بل القصد كله انتظام أحوال الناس كلهم بعضهم مع بعض بأي وجه كان،وأن ينالوا سعادة ما مظنونة بحسب رأي ذلك الرئيس، فتعلم أن تلك الشريعة ناموسية. . .

وإذا وجدت شريعة جميع تدبيراتها تنظر فيما تقدم من صلاح الأحوال البدنية،وفي صلاح الاعتقاد أيضا،وتجعل وكدها إعطاء آراء صحيحة في الله تعالى أولا وفي الملائكة،وتروم تحكيم الإنسان وتفهيمه وتنبيهه حتى يعلم الوجود كله على صورة الحق،فاعلم أن ذلك التدبير من قبله تعالى وأن تلك الشريعة إلهية .

وبقى أن تعلم هل مدعى ذلك هو الكامل الذى أوحى إليه بها أو هو شخص ادعى تلك الأقاويل وانتحلها؟ووجه امتحان ذلك هو اعتبار كمال ذلك الشخص وتعقب أفعاله،وتأمل سيرته،وأكبر علاماتك اطراح اللذات البدنية (و) التهاون بها.

*****

وبعد هذه الدراسة للمعجزة المعنوية يتبين لنا بوضوح أن اهتمام علم الكلام بالمعجزة الحسية على حساب المعجزة المعنوية لظنة أنها أقوى دلالة على الصدق كان خطئا كبيرا .

---

(١) الأحقاف : ١٠ . (٢) يونس : ٩٤ .

(٣) الرعد : ٤٣ . (٤) ابن ميمون : دلالة الحائرين ص ٤١٧ .

الخاتمـة

obeikandl.com

بعد هذه الدراسة التي أوضحنا فيها ماهية المعجزة وأثبتنا فيها برهانيتها، تصديقا لقوله تعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1] وقوله ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾[2] وقوله ﴿خلق الإنسان من عجل، سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾[3] نعرض لأهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال البحث آملين بذلك أن نكون قد وفقنا في مرادنا، وأن يتقبل الله منا هذا العمل على ما به من نقص، وقصور مازلت استشعره كلما عاودت القراءة .

ولولا قول العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر. وهو دليل استيلاء النقص على كافة البشر» .

ما كنت حاولت نشر هذا العمل ولما أطلعت عليه أحداً، طلبا للكمال والكمال لا يكون إلا لله وحده .

- أهم نتائج الدراسة :

- إننا لا نرى بأسا بتعدد الإطلاقات على ما يحدث على أيدي الأنبياء من خوارق حقيقية .

- إن التعريف الصحيح للمعجزة في الاصطلاح هي أنها أمر خارق لعادة عامة الخلق أجمعين يجريه الله على يد مدعي النبوة، تصديقا له.

- إن المعجزة كما تدل على صدق الأنبياء ومن ثم على وجود النبوة، تدل أيضا على وجود الله تعالى وتعرفنا كمالاته، وتتضمن الكثير من الحكم والإشارات الرمزية الدقيقة .

- إن بحث مسألة المعجزات يثبت نبوة النبي محمد - ﷺ - ويثبت ناسخية الرسالة المحمدية لكل ما سبقها من الشرائع السماوية بأن كل ما جاء قبلها من الشرائع السماوية يفتقد الآن دليل النبوة المعجز الحسي والهدائي لفقدان شرط صحة التواتر، ولما أصاب هذه الشرائع من التحريف ويؤكد على خاتمية الرسالة المحمدية بأن كل ما جاء بعدها من دعاوى للنبوة دعاوى باطلة لا فتقادها دليل النبوة المعجز

(١) فصلت : ٥٣ . (٢) النمل : ٩٣ . (٣) الأنبياء : ٣٧ .

سواء كان حسيا أو هدائيا كما هو الحال عند القاديانية والبهائية والبابية وغيرهم .

ـ إن هناك ما لا يحصى من الفروق بين الخوارق غير الحقيقية والخوارق الحقيقية، وبيانها يحمى العامة المنبهرين بالخوارق آياً كانت حقيقية أو غير حقيقية غير مفرقين بين النوعين من اتخاذ هذه الخوارق غير الحقيقية دليلا على التأييد الإلهى، كما هو مشاهد عند ادعياء النبوة، والتصوف، والرهبنة .

ـ إن للكرامة وجودا، وإن إثباتها لا يطعن في المعجزة.

ـ إن المعجزة إنما تدل على نبوة صاحبها لا على ألوهيته .

ـ يقسم العلماء المعجزة أقساماً متعددة لاعتبارات مختلفة، منها الصحيح، ومنها غير ذلك، ولعل أهم هذه الأقسام تقسيم المعجزة من حيث كونها حسية أو معنوية .

ـ إن دلالة المعجزة المعنوية على الصدق أقوى من دلالة المعجزة الحسية وإن كان لكل منهما مخاطبوها.

ـ إن المعجزة ممكنة، وإنها من الله تعالى، وإن كانت بقدرة الملائكة، فالله تعالى هو الخالق للأسباب و المسببات .

ـ إن التواتر موجب للعلم الضرورى، ولا وجه للطعن فيه .

ـ إنا نقبل التأويل الرمزى للمعجزة بشروط .

ـ أما التأويل الطبعى فنرفضه لأنه يجعل من المعجزة وهى أمر خارق للعادة، أمرا غير خارق للعادة .

ـ إن المعجزات نسبية في دلالتها وفي درجة خارقيتها إلا أنها متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز، وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة .

ـ إن محصلة دلائل صدق النبوة لكل نبى قطعية الدلالة .

وختاما، أرجو الله العلي القدير أن أكون قد وفقت

جمال الحسينى أبو فرحة